خطة آر جي

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: خطة آر جي**

❖ **المؤلف: جواد سيف الدين**

❖ **الطبعة الأولى 1444 هـ - 2022 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 23923 / 2022**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 6492 – 994 – 977 – 978**

❖ **الغلاف: روعة للتصميمات 2022 - ببلومانيا**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: b21l258-22**

❖ مدير عام: جمال سليمان – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

❖ محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

©جميع الحقوق محفوظة

/bibliomania.eg

خطة

آر جي

رواية

جواد سيف الدين

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2022

جميع الحقوق محفوظة ©

الإهداء

إلى الدولة اللبنانية بكل كياناتها الفاسدة:

وأنا أكتب إهدائي لكم هناك خطة يتمُّ تنفيذها بإحكامٍ في هذه الأثناء، أبطالها مجموعة شبابٍ قد علَّقوا شهاداتهم على الحائط، أو قد وُضعت في سلَّة مهملاتٍ في شركةٍ قامت بتوظيف أناس قد حضروا من طرفكم دون شهادة!

إنه اليومُ الثاني عشر من حزيران من العام ٢٠٢١ أعلنُ بدأ توثيق خطة "آر جي" (RG).

مقدمة

إن أحداث هذه الرواية هي من نهج الحقيقة الخيالية والخيال الواقعي، وأقول هذا لعدمِ الملاحقة والمساءَلة القانونية لما يمكن أن يُحدثه قلَّة ضمير الطبقة الفاسدة والحاكمة في لبنان.
ربما أستعينُ بمحامٍ قد حاصرتهُ البطالة كما فعلت بنا نحنُ وشباب لبنان كافة وبكل الأحوال أنا لستُ خائفًا منكم فأنتم لستم سوى مرتزقة هالكة في مقبرةِ التاريخ.

فعلًا لم تكن سوى خيال لكن الأخير هو فسحةُ الأمل الوحيدة التي تجعلُنا نستمرّ إلى الأمام وقد حان وقتُ ترجمة الخيال إلى حقيقة والمستحيل إلى ممكن والممنوع إلى مُباح.

إن هذا الكون مليء بالأفكار التي ستصبحُ شريرة مجرد أنها مخالفة للقانون، ولكن ماذا إذا كان الأخير يمشي فقط على طبقةٍ كادحةٍ تعاني الأمرَّين في سبيل تحقيق مجردِ حقوق، ويقف عاجزًا أمام ريشةٍ تستقرُّ على رأسِ من جعلَ من القانونِ أضحوكةً كلعبةِ شطرنج يستطيعُ الجندي فيها قتلَ الملكِ والوزير.
لا تكفي ربما خطط الكونِ لإزالة كمشةِ ظلمٍ في هذه الحياة ولكن ربما تفعلُها خطةٌ واحدة قد وُلدت من رحمِ اليأس...

إنها خطةRG

البقاع – غرب بعلبك

قصة علي

لقد كان يومًا روتينيًا كالعادة، يستيقظ "علي" عند الساعة السابعة مساءً، هذا ما أصبحت عليه حياتهُ منذ أكثر من سنتين، ليلهُ نهار ونهارهُ ليل. رائحة الطعام تفوحُ في المنزل...

- هل جاء جواد وأنا نائم؟

يسأل علي متوجهًا للحركة التي يسمعها ناحية المطبخ دونَ معرفةٍ من مِن إخوته قد جاء من خدمته العسكرية.

يصرخُ مصطفى من المطبخ الذي لا ينفصلُ عن غرفة الجلوس سوى بقاعدةٍ عليا ترفعه جغرافيًا عنها:

- جاء عند الساعة الواحدة ورحلَ عندما عرفَ أنك نائم.

بعينينِ غافلة يتجه علي نحو أخيهِ في المطبخ بعناقٍ شديدٍ متجاهلًا دلو الماء تحت أقدامهِ وبعض الأسلاك المتشابكة التي علقت بأطراف أصابعِ قدميه:

- أي ساعة أتيت، اشتقتُ لك " بو صطيف ".

عناقٌ حارٌ بعد غياب خمسة أيامٍ في خدمة الجيش. اعتاد علي مجيء إخوته من خدمتهم مصطفى وكنان، أما انتظاره لأخيه الأكبر "رياض" فقد انتهى منذ زواج الأخير وانتقالهِ للعيش في منطقة زحلة التي تبعد حوالي نصف ساعة في السيارة، ولحسنِ حظّهِ تأتي مأذونية كنان ومصطفى في ذات النهار.

يقوم علي بتحضير إبريقِ الشاي ويضيفُ عليه سكرًا خفيفًا ويواصل كلامه:

- ألم يدخل جواد نهائيًا؟ لِم لَم توقذوني؟

- لقد أصرّ ألّا نفعل، يُجيب مصطفى ثم يتوجهُ لعليّ بسؤالهِ:

- هل ما زالت الكهرباء معطلة؟

- على ما هي ولا يوجد أي تغيير.

ثم يتوجّه "علي" إلى مجموعةٍ من الأوراق المتراكمة ويجلبُ الفاتورة الأخيرة...

- لقد جاءت الفاتورة مرتفعة هذا الشهر بعد رفعِ سعر كيلو الكهرباء في المنطقة.

- يا للهول يقول مصطفى، أيضًا لقد ارتفعت تكاليف النقل هذا الشهر وأعداد الجنود الذين يتهرَّبونَ من الخدمة في ازدياد، لم يَعد معاشُ الجيش يكفي، بالكاد لأولِ خمسة أيام!

- وكم قيمةُ الفاتورة؟

- تقريبًا تسعمئة ألف.

- ماذا؟! هذا جنوني!

- لقد أصريتُ عليهِ على تدقيق الفاتورة والعداد، وسأقوم بهذا سرًا الأسبوع المقبل.

لقد كانت محاولاتُ "علي" للالتحاق في الجيش أو في أي مجالٍ آخر من خدمة الوطن تفشلُ مرةً بعد مرة، دورةُ الرقباء، دورةُ المجندين، دورةُ الأمن العام، دورةُ الدرك، الدراجين والكثير من الدورات التي حاول التقديم عليها لكنهُ ارتطمَ في جدارِ اليأس بعد ازدياد الوساطات والمحسوبيات التي يتطلبُها الالتحاق بالخدمة.

لم يكن هذا حبًا بخدمة الوطن الذي لم يقدّم له سوى الألم والإحباط إلى الآن، لكنه أيضًا قد علّق منذ ثلاثة سنوات شهادتهُ في مجالِ المحاسبة والمعلوماتية على الحائط بعد أن فشلت كل محاولاته لإيجادِ عملٍ والهروب من آتون البطالة، في الحقيقة كانت هناك عدة فرص شبيهة بالسُخرة

والرقّ والعمل الجائر مقابل حفنةٍ من المال تكفي فقط للمواصلات لكنهُ بطبيعة الحال رفضها، لم يكن محظوظًا بامتلاكهِ بوابةً للسفر أيضًا سوى بعض أقاربه الذين يبيعون الكلام فقط وبأسعار أصبحت تنافس الدولار ارتفاعًا.

يصرخ مصطفى بعد فوران إبريق الشاي وتناثرِ المحلول على سطحهِ

- علي... أطفئ الغاز الشاي جاهز.

لم تكُن هذه الأمور موضع اهتمام، فوران إبريقِ الشاي لا يعني شيئًا أمام فوران قلبهِ غضبًا بحياته التي أصبحت بائسةً في الفترة الأخيرة، وكان الملاذ الوحيد له أصدقاؤه جواد، ورائد، وعباس، بالإضافة إلى الوقت الذي يقضيهِ مع إخوته أثناء مأذونيتهم في المنزل.

يشربُ علي الشاي في كوب يساعُ نصفَ الإبريق تقريبًا ويحاولُ الاتصال بـ " جواد " دونَ إجابة، يتوجَّه بعدها نحو التلفاز ويقوم بتشغيلهِ...

- ارتفاع في أسعار المحروقات بعد وصولِ الدولار إلى معدلاتٍ قياسية ثم فيديو مصوَّر يتناولُ أسعارَ اللحوم ووصولِها إلى حدودٍ خيالية، ثم أخبارٌ عن بعض السرقات التي تنشط خصوصًا بقاعًا، ودراسة عن تراجع الوضع التعليمي ونفاذ المستشفيات من الأوكسيجين وازدياد معدل الوفيات، ثم إلى الوضعِ الإقليمي حيث يستمرُّ لبنان كونه فريسة الصراعات الأمريكية الإيرانية وانقسام العالم كما الحكومة ما بين مؤيدٍ ومعارض... ثم فجأةً يطفأ التلفاز.

- ما الأخبار يسألُ مصطفى؟

- كما العادة لا شيء جديد، إلى الأسوأ نتّجه.

- هههههه، يصرخ ضاحكًا... وهل هناك أسوء من هذه الحال؟

لقد كانت هذه أحوال البلاد وقد أصبحَ اعتياديًا سماع هكذا أخبار، من سيهتمُ لارتفاع أسعار اللحوم؟ لقد اختفت عن المائدة منذ أول ارتفاعٍ للدولار تقريبًا، ارتفاعه عشرين بالمئة وهو مرتفعٌ اليوم حوالي أربعة آلاف بالمئة، من سيُبالي إذن باللحوم وبالكاد نستطيعُ تناول بعض البرغل والمجدرة وفطورَ الزعترِ والزيت وبعض الطماطم والتي كانت إنتاجًا ذاتيًا لما كان "علي" قد عمل فيهِ في حديقةِ المنزل! خطٌ مزروعٌ من الطماطم حوالي ستة أمتار وخط من اليقطينِ والحرّ ومساحة لا بأس بها من أعشاب الفجل والبقدونس والنعناع.

لقد كان هناكَ متسعٌ من الوقت له للاهتمام بهذه المزروعات خلال فترة الصيف والخريف؛ نظرًا لعدم إيجاد عملٍ له وقد راهنَ مع جواد بوقتها على نجاحِ المزروعات وقد ربحَ الرهان.

بعد ساعةٍ يُقرع باب المنزل، يتّجهُ علي بسرعةٍ نحو الباب بعد سماعِ صوت محرّك سيارة صديقه "جواد"...

كان يستطيعُ تمييز أصوات المحرّكات من هدرتِها ليعرف مَن مِن أصدقائه في الخارج.

بعد سلامٍ حار رغم أنه مشهد يومي بينهما يدخل جواد المنزل ثم سلامٌ وعناقٌ بينهما...

- لقد أتيتُ ظهرًا، كنتُ أريدك في أمرٍ مهم.

- أمرٌ مهم؟! يسأل "علي" ضاحكًا.

- يمكنكَ القول أنَّها استشارةٌ صغيرة.

- لقد كنتُ نائمًا يضحكُ علي...

- يا رجل منذ متى استيقظت؟

- منذ حوالي ساعة ثم يضحكُ مجددًا...

- أظن أن عليك تنظيم وقتك ونومك.

- سأفعل ذلكَ ربما بداية الشهر القادم.

كان جواد يعرفُ جيدًا أن هذا ما يقوله علي كل شهر، لكنه لم ييأس من محاولاته خصوصًا عندما يضع نفسهُ مكان علي، لا خيارات أمامه على الأقلّ هذه الفترة.

على عكس " علي " فقد كان حظ جواد جيدًا في العمل رغم أنه في الفترة الأخيرة في تعبٍ دائم، وقد عبَّر في عدةِ مناسباتٍ عن رغبتهِ في الاستقالة، لكن ليس في الوقت الحالي فمسؤوليات الخطوبة والمنزل تلاحقهُ والتكاليف تزداد ورغم أن مرتبه بالعملةِ الأجنبيَّة فبالكاد يكفي مصاريف البناء وتأمينِ المازوت والبنزين في ظلِّ غلاء المحروقات والمواد الغذائية فضلًا عن مصاريف العائلة والمنزل.

سرعان ما يحضرُ " رائد " وينضمُّ إلى الجلسة ويبقى الجميع بانتظار عباس الذي لطالما كان الأخير في وصولهِ الجلسة.

جلسة الورق تتحضر، يتشارك الجميع في همومهم ورغبتهم العارمة في الخروج من هذا الواقع المأساوي في البلاد، ولكن لا فرص ولا رأسمال من أجل الانطلاق.

يصل عباس لتكتمل الجلسة، بعض الأحاديث الجانبية، يتكلَّم الأخير عن عدم إيجاد بنزين لسيارتهِ ثم يحاول إشعال سيجارتهِ ويقوم بإعطاء واحدة لرائد، بعض التذمّر من جواد ثم علي اللذان يكرهان رائحة الدخان المُنبعث من السجائِر، ويكون الحل الوسط بوضعها بعيدةً عن الاثنين.

ربما التشابهُ القائم بينَ "علي" و"جواد" هو أكثر ما جعلهما صديقين مقربين، بدأت صداقتهما خلال الطفولة واستمرَّت إلى الآن، عشرون سنة من الصداقة تقريبًا ورغم معرفة علي أن شراكة جواد في لعبِ الورق تستدعي بعض العصبية إلَّا أنه غالبًا ما كان يختاره، رغم أن الأخير لم ترقه أبدًا هذه اللُّعبة ولكن في قانون الصداقة، كل أمرٍ جائز.

تنتهي جلسةُ الورقِ عند ملل أحد الأطراف، غالبًا ما يكونُ جواد ويبدأ النقاش المعتاد حول ما يمكنُ عمله في اليوم التالي، عباس يشارك تجربتهُ في السفر إلى أنغولا جنوب أفريقيا بعد عدم قدرتهِ على استكمال تعليمه كطبيبٍ عام رغم أنه يحتاج فقط ثلاث سنوات فقط، لكن التكاليف أصبحت باهظةً وثقيلةً على كاهل عائلته، فاختار التوقّف خصوصًا عند بداية أزمة الدولار، سافرَ بعدها إلى أنغولا وعمل لمدة سنةٍ تقريبًا انتهت بشجار بينه وبين صاحب العمل الذي لطالما كان يستغلهُ في الدوام وعلى الدوام وإلقاء الكثير من المهمات على عاتقه، اختار مجددًا العودة إلى لبنان ورفض أن يكونَ مستغلًّا من شخصٍ لا يصلُ إلى نصفِ مستواه التعليمي، ينتهي النقاش بين مؤيدٍ لقرار عودتهِ وبين معارض، لكن يبقى الواقع أنه اليوم في واقعٍ مأساوي يتشاركُ أحزانه وهمومه مع أصدقائه، وهذا أفضل من مشاركتها مع أربعة جدران وسقف.

أما رائد توقفَ عملهُ في مجال التمديدات الصحية والكهربائية في المنازل بعد البطالة المدقعة في لبنان ورخص اليد العاملة الأجنبية التي كانت سببًا رئيسيًا بأنه عاطلٌ عن العمل، في الحقيقة ليست كذلك بل السبب كان النظام الطائفي في البلاد وانتشار المحسوبيات والوساطة وعدم وجود مساعداتٍ اجتماعيةٍ للشباب، بل لكافة الفئات العمرية، الآن يضع رائد السفر نصبَ عينيه ويتعلَّق كما الغريق في عودِ ثقاب، حتى أنه بدأ مؤخرًا التفكير

بالسفر إلى العراق رغم الفرص الشحيحة هناك ولكن يبقى الأمل أكثر ارتفاعًا لديه.

البشر استغلاليون للغاية، لقد أصبحَ مرتّب اللبناني في بلاد الاغتراب لا يتجاوز السبعمئة دولار بعد أزمتهِ المالية، فالحاجة أم الاختراع، اختراع وسائل في النصب واللاإنسانية والطلب الكبير على العمل يوقظُ الشياطين المتأججة في البعض ويجعل الاحتكار سببًا في الاحتقار.

- إذًا تعالوا نفكّر بمشروع يصرحّ رائد ساخرًا...

- ربما رقاصة، يُجيب عباس، لقد قرأت عنوان في الأخبار أنهم بحاجة لرقاصة بمرتبِ عشرة آلاف دولار...

- سأكون أنا صاحب الطبِل... يتابع علي

يضحكُ جواد ويتابع...

- ما رأيكم بمحلِ شاورما ودجاج سيكون مشروعًا ناجحًا؟

- ليس إن كنا نحن زبائنكَ يرد "علي" ويتبعها قهقهات من الضحك...

- أفكر ببيعِ كليتي ما رأيكم، إنها تساوي ما يمكن أن يجعلني سنتين دون عمل!

تتوجَّه الأنظار بجديةٍ نحو "علي"...

- ثم إننا نستطيعُ العيشَ بواحدةٍ فقط، يضيف "عباس"

- أتكلَّم بجديَّة، هل هناك من يعرفُ أينَ يمكننا بيعُ أعضائنا؟ ربما سأتخلَّى عن كليةٍ وعينٍ وأذن وكل ما أمتلكُ منه اثنين...!

- خصية أيضًا، يضيفُ رائد ساخرًا ثم ضحكاتٌ في أرجاء الغرفة

ينتقل بعدها النقاش إلى الوضعِ السياسي بينَ كلام تحت الحزام وسياسيين تحت الأقدام...

- وما ينفع هذا...؟ يصرخ علي، ستراهم كالأغنام يعيدون انتخابهم بعد شهرين.

- نعم سيشترون الصوت بمئةِ دولار، أعدكَ أنني أول من سيبيعه ولن أنتخبهم ثم يضحك رائد.

لطالما وقف رائد في صدامٍ مع عائلته بسبب انتماءاتهم الحزبية الموالية لخط المقاومة ورغم أنه ينادي دائمًا بالأخيرة وحبّ الوطن، إلا أنه لا يبرّر أبدًا تصرفات هذا الحزب في إدارة البلاد، ولكم حاولت عائلته كَبح آرائه على مواقعِ التواصل بسبب الخجل من بعض الفعاليات الحزبية في المنطقة ولكن دون جدوى، أما جواد فعلى ذات الخط وتدعمه عائلته في ذلك ولكنهُ اعتكفَ المواجهة منذ بضعة سنواتٍ على مواقع التواصل لما سبَّبه هذا الأمر له من متاعب.

بمنتصف الحديث يدخلُ كنان المنزل وبعد سلامٍ متسلسلٍ يدخل النقاش مباشرة...

- ولما المُلام دائمًا هو هذا الحزب؟ ثم لو تعمقتم سياسيًا فهي لعبة أمريكية إسرائيلية.

يقاطعه "جواد": إنها نظرية المؤامرة كفاكم الكلام بها.

- ماذا تعني بالجمع ومن تقصد نحن؟

- أنت أولئك الذين رغم معاناتنا ما زلتم مصرّين على أحقيَّة أحزابكم فقط لأنها أقل فسادًا من غيرها.

يضيف "عباس": نعرف جميعًا أطماع الولايات المتحدة وأطماع الدول الكبرى فهل سنبقى نبرّر بهذا؟ ثم أين كرامتنا ونحن لا نستطيع تأمين الخبز لأولادنا؟

ثم يضيف جواد وهو يتوجَّه بسؤالهِ لكنان:

- منذ متى كانت خطوبتك قل لي؟

- منذ ستة سنوات ولكن ليس للأمر علاقة بحزبي!

- كيف لا وهو بالحكم منذ أكثر من ثلاثين سنة من مجلس النواب إلى الوزراء إلى رؤساء البلديات؟!

في هذه الأثناء يحاول مصطفى إضاعة الموضوع فبرأيهِ لا نتيجة من هكذا نقاش يتكرر كل أسبوع.

بداية الأزمة

بعلبك – لبنان

عربون صداقة

ستة دولارات - رائد

أن تحبَّ فتاةً هي لعنةٌ في أوطاننا، أعني لا وجود لهموم المنزل والهدايا والخروج والتسوق، يمكنكَ العيش ببساطة دون خوف أما حينَ يَغدر بك القلب ويجعلك تحب فتاةً تأخذ خطوة الخطوبة فتصبحُ عندها أكثر حقدًا على وطنك، تحاول العمل ليل نهار من أجل الاستمتاع بلحظات الخطوبة الجميلة، ورغم عدم طلبات خطيبتك ومراعاتها لوضعك إلَّا أنه من الضروري أن نعيش هذا الوقت، تناولُ الطعام الجاهز، الذهاب لزيارة قلعة بعلبك، أكل الآيس كريم بالنكهات المتنوّعة، سهرات النار وكل تلك الأمور، من لديه الاستعداد للاستغناء عن هذا كله؟ حسنًا لا أحد.

لقد كان رائد يعمل ليل نهار من أجل حبيبته ومن أجل هذه اللحظات ولكن ماذا! إلى متى سيبقى الوضع على ما هو عليه؟

داخل هذه الشلة كان جواد ورائد من وقعا في فخ الحب، لقد كان أسهل على "جواد" هذا الأمر لأن حبيبتهُ كانت على سفر تستكملُ تعليمها... وكان عملُ الأخير رغمَ ما سببه له من تعبٍ نفسيٍ يكفي أن يكون مؤقتًا مرتاح البال، أما رائد فقد وضع السفر هدفًا له رغم الصعاب وندرة الفرص.

يستيقظ "رائد" كل صباحٍ كالعادة في وقتٍ متأخر، يتناولُ طعام الفطور ثم يذهب إلى "علي" لمعرفة ما ستكون عليه مشاريع اليوم.

- هل كلَّمك الرجل عبر الهاتف؟ يسأله علي دونَ ترقب جواب معين.

- يبدو أنه يتهرَّب لكني لن أعطيه أي مالٍ دون ضماناتٍ لي بالسفر، يقول أنه يحتاج صورة شمسية وبعض النقود كي يستطيع مساعدتي في السفارة، يقول "رائد".

- وهل صدقتهُ؟ من الواضح أنه دجّال ونصّاب!

- لم أفعل، قلتُ له لا نقود قبل الفيزا، أنا يائسٌ يا علي أحتاج المال، أحتاج الحرية.

بعض الضحك من علي، هي ضحكات على وضعه ووضع أصدقائه فهو يعرف جيدًا أن الحالة المادية جدًا صعبة وقد فشلت كلّ محاولاته للالتحاق بوظيفةٍ رسمية، والآن عليه سماع هموم أصدقائه، لقد بدأ الوضع يسوء منذ سنةٍ تقريبًا إثر اندلاع المظاهرات في البلاد بسبب زيادة تعرفة الاتصالات 6 دولارات، بعد ذلك بدأت رحلة تدهور سعر الدولار والغلاء المعيشي وفي الحقيقة أن هذه المظاهرات كانت الشعرة التي قسمت ظهر البعير وسرِّعت عملية التدهور المالي في البلاد، فقد وصل الفساد أوجهه لدرجةِ حصول أزمة نفاياتٍ بسبب انقسام الشركات وخلافاتهم حول نسبة الأرباح العائدة إليها، فملأت بوقتها النفايات شوارع بيروت وأصبح المواطن أمام خطر التلوث والأمراض وكل هذا دون أن يتحرك بالفاسدين رجفة ضمير لا يمتلكوه.

لقد كانت السهرة اليوم تنقص جواد الذي كان في الفترة الأخيرة منشغلًا في ضغوطاتِ العمل حيث كان يداوم تسع ساعاتٍ متواصلةٍ فيأتي المساء عليه وهو في قمةِ التعب والإرهاق، ولا يجد نفسه إلا وقد تكرّر يومه في صباحِ النهار التالي وكان نهار السبت والأحد المفضّلان لديه لقضاءِ وقتٍ مع أصدقائه وممارسة التمارين الرياضية وتطوير هواياته في الكتابة والمطالعة، علي الذي أصبح منزله لقاء الأصدقاء لما يحملهُ من حبٍ وراحةٍ نفسية، وهو المنزل الوحيد الذي يعيش فيه فقط ثلاث رجال، علي، مصطفى وكنان، فكان مكان اجتماع الشلة كل يوم. يستطيعون الصراع، المشاجرة، استعمال العبارات النابية تجاه وضع البلاد، الذهاب والدخول إلى الحمام بكل راحة والعبث بأدوات المطبخ. هذه المرة كانَ كنان يتكلَّم عن

الوضعِ السيء في خدمة الجيش وبأنهم وصلوا إلى مرحلة إلغاء وجبة الدجاج واللحوم من طعام الجنود خصوصًا بعد ارتفاع أسعار الأخيرة.

- نصفُ الجيش أصبح يريد الهروبَ من الخدمة لم تعد الأمور جيدة في المؤسسة العسكرية.

- أراهن بعد شهرين سيكون النصف الآخر معهم إذا ما تمَّ معالجة راتب المجندين، يضيف مصطفى.

- هل تصدق أن هناك قسم من الجيش قد بدأوا بالسرقة؟ لقد أخذ أحدهم كميةً هائلةً من التنباك المصادر والمعدّ للدفن من شركة الري جي الذي يحرسها الجيش وكان ذلك بتغطيةٍ من الضباط هناك.

- إذًا هذا يمشي على الضباط فقط يقول علي ثم يضيف:

- ما المبلغ الذي جناه في هذه العملية؟

- عشرة ألاف دولار، يجاوب كنان متحمسًا.

تتوسع حدقات رائد ويقول:

- حلالٌ عليه، كل سرقةٍ من الدولة هي حلال!

- كلا ليست كذلكَ، يجيب كنان.

أثار جواب كنان نقاشًا حادًا بين الأخوة، رائد وعباس والكل كان متفقًا أن الأمر حلالٌ، فالسرقة من السارق الذي سرق لقمة عيشك هو واجبٌ وطني.

- حتى أنا كعريف في الجيش يمكنني أن أفعل هذا لكن ضميري لا يطاوعني، يقول كنان.

- ماذا؟ هل تقصد تستطيعُ جني هكذا مبلغ ولم تفعل؟!

- في الحقيقة نعم.

يصرخُ عباس: لأنك حمار ثم يضحكُ الجميع...

يرد كنان: إن كان الحلال سيجعلني حمارًا فأنا أريد هذا.

بدا المشهد أكثر جديَّة حين تغيَّرت نبرة علي في الكلام وبدا كثير الغضب وقال:

- أي حرامٍ هذا؟! وكيف أفتيتَ هذا؟ انظر لوضعنا كيف هو بسبب هذه الدولة وأنت ترفضُ استغلال فرصة استرداد حقك؟ أي إيمان هذا

في هذه الأثناء يأتي جواد وينضمّ إلى السهرة بعد عدم قدرتهِ على النوم باستقرار، لقد كان يومه مليئًا بالعمل والضغوطات النفسية.

- السهرة حامية إذًا ما النقاش اليوم؟

- تعال واسمع، يصرخ رائد.

- ماذا هناك؟ هل هو مشروعٌ جديد؟

ثم يستدركُ كنان الحديث ويقول:

- سأسألك سؤال وعليك الجواب هل توافق؟

- نعم تفضل اسأل

- إذا جاء سارق وسرق غرضًا من منزلك هل سيبيح لك هذا أن تسرقَ من منزله إن كنت تعرف أنه فوق القانون ولن يحاسَب؟

- سأسرقه وأبرحهُ ضربًا أيضًا.

يضحك عباس من بعيد وهو يتّجه نحو التلفاز ثم يلتفت نحو كنان وهو يمسك جهاز التحكم ويقول: كنان كلنا سنفعلُ هذا الأمر.

- أصدقاء أخبروني ماذا يحدث؟ يصرخ جواد.

يخبر عباس الموضوع لجواد الذي يبدو أنه يريد احتواء الغضب الكبير خصوصًا بأن الجميع كان ضدّ كنان.

- حسنًا ربما قصدُ كنان أنه بحكمِ وظيفتهِ لا يستطيع فعل هذا.

ثم يكمل كنان الحديث... الموضوع دينيٌ بحت وواضح، أنا لا أفعل هذا لأنه محرمٌ دينيًا ولا وجود لأي فتوة تّجيز سرقة السارق.

- حسنًا قل لنا كيف سنفعلُ ذلك ونحن سنتولى ذلك؟ يقول عباس ويطلق قهقهة من الضحك:

- لما لا؟ لكن عليكم حفرُ نفقٍ يصل طولهُ خمسة أمتار لعبور السور.

- هذا مستحيل يقول جواد، فلنكن واقعيين ونتحدَّث عن مشروع مربح.

تجاهل الجميع كلام جواد وبدأوا بطرح الأسئلة على كنان...

- تقع شركة التبغ التنباك اللبنانية على بعد مئات الأمتار فقط من الثكنة العسكرية ويتولى حراستها جنديين يتبادلان مداورة حراسة المكان.

- إذن هذا المكان شديد الحراسة!

- ليس فعلًا، يُترك المكان دون حراسةٍ خلال ساعةٍ في النهار وهو أمرٌ نسبيٌّ حسب الأوامر المعطاة من الضباط.

ثم يكمل كنان حديثه:

- تقوم شركة الري جي بمصادرة الدخان والمُعسل وكل مشتقات التبغ الغير قانونية والتي يتمّ مصادرتها وتقوم بدفنِ هذه المواد في قطعةٍ من الأرض ضمن الشركة والدفن يتمّ بعمق عدةِ أمتار فقط حتى أن بعضَ هذه البضاعة تظهر على وجه الأرض، يقوم بعض الضباط بعد معرفة نوعية البضاعة بأخذ كميةٍ منها للاستخدامِ أو التجارة.

يقاطع جواد الحديث ويقول: ماذا تقصد باستخدامها؟

يجيبُ كنان: سؤال جيد، بعض هذه البضاعة يكون غالي الثمن مثل السيجار العريض.

- وكم ثمن السيجار؟ يسأل رائد.

- ثلاثمئة ألف.

- تقصد العلبة صحيح؟!

- بل السيجار الواحد يا ذكي.

- ماذا إن استطعنا الوصول إلى المكان؟ ما احتمالية إيجاد بضاعة غالية الثمن أو كمية جيدة للبيع مثلًا؟ يقول عباس.

- إذا استطعتم الوصول وهذا مستحيل فسيلعبُ الحظ هنا الدور الأكبر، إمّا ستجدون كمياتٍ كبيرةٍ تعطيكم واردات ضخمة من المال في حال أجدتم التسويق وإما ستخرجون بوفاضٍ خال.

يضحك علي ضحكة كبيرة: هل تتصوَّرون أن نخاطرَ كل هذا ولا نجد سوى حفاضات أطفال؟

يضيف رائد: إذا كان الأمر متعلقًا بالحظ فلن نتوفّق أبدًا، نحن إن ذهبنا إلى البحرِ سيتبخر.

- ثم هناك عملية التسويق، كيف إن وجدنا كمياتٍ كبيرةٍ من التنباك على سبيل المثال سنقوم ببيعها وتسويقها؟ يسأل جواد

يجيب عباس: فلنجد كمياتٍ كبيرةٍ ولن نتعطّل بعمليةِ البيع.

ثم يقاطع كنان الجميع ويقول: على العموم الأمر مستحيل، لدينا عملية نقل البضاعة إن وجدت، من مكانها إلى البقاع، الأمر سيثير شكوكًا كبيرة.

- سنخبئها بمستودعاتٍ نقوم باستئجارِها، يقول عباس.

- هذا مستحيل، المنطقة هناك عبارة فقط عن بناياتٍ شاهقةٍ وهي تعود إلى شخصيةٍ سياسيةٍ مرموقة، يأتي جواب كنان.

- تقصد تعود لسارق الشعب اللبناني!

أيًا يكن فهي شديدة الحراسة والمباني المتبقّية هي قديمةٌ ولا تصلحُ للسكن.

يقف جواد بعد مرور نصفِ ساعةٍ من النقاش ويقول:

– شباب فلننهي الموضوع وكفاكم جنونًا.

في صباح اليوم التالي، يستيقظ مصطفى بصداعٍ قويٍ في رأسه، ربما أصيب بفيروس كورونا المتفشّي في البلاد وأصبحَ التشخيص الذاتي سيد

الموقف بعد غلاء الفحوصات الطبية والدواء، يحاولُ علي نقل تجربتهِ مع هذا الداء إلى مصطفى مطمئنًا إياه، ولكن بعد ساعاتٍ تشتد العوارض عليه لكنه يصرّ أنه لا يحتاج أي دواء وأن الموضوع سيمرّ بعد أيام.

يذهب علي فيما بعد ودون علم أخيه إلى الصيدلية...

- أريد فيتامين سي ودي ودواء الزنك، كم أسعارُ هذه الأدوية؟

يقومُ الصيدلي باستخدام الآلة الحاسبة وينظر علي إليه من بعيد، يدق مئة وعشرون ألف ليرة ويضيفُ بعض الأرقام وقبل أن ينتهيَ يتفحص "علي" محفظة النقود ليرى أنه يمتلك فقط نصف المبلغ للرقم الأول الذي قام الصيدلي بطباعتهِ فيخرج دون إضافة أي كلمةٍ وسط اندهاش الصيدلي من هذا التصرُّف.

أرض الري جي

السعديات – 26 شباط

رائد – حلٌ جذري

لقد اتصلَ السمسار هذا الصباح وقال أن لديه أخبارٌ جيدة لي، الباسبور في مراحلهِ الأخيرة لنيل الفيزا إلى أوروبا لكنهُ يحتاج دفعة أخيرة تقريبًا ألف دولار. بدأ رائد يقيس مسافة المنزل ذهابًا وإيابًا... من أين سأحصلُ على هذا المبلغ من المال؟ هل أستدين من جواد؟ لكنه يبني منزلَ أحلامه وبالكاد يكفيه المال لهذا. بدأ يفكرُ بأخته ثم أبيه ثم ما الأمور التي بإمكانِه بيعها ثم جاءته فكرة رائعة.

دون تفكير توجه رائد إلى غرفة الجلوس ليجد أمهُ تقومُ بفرم بعض الخضار.

- أمي، هناك أخبارٌ جيدة.

- ما الأخبار رائد، هل وجدتَ عمل؟

- في الحقيقة كلا أمي، لكن جواز سفري إلى أوروبا في لمساتهِ الأخيرة أكملت أم رائد فرم البقدونس بعد أن توقفت لبرهة.

- أمي هذه المرة يختلف الموضوع، عندي إحساسٌ أني اقتربت.

- رائد ألم ننتهي من هذا الموضوع، لقد صرفتَ كل ما تملك، فكّر بنا، فكّر بخطيبتك على الأقل، فكّر بأخيكَ موسى وبأبيكَ العجوز الذي يعمل طوال النهار من أجل لقمةِ عيشنا!

- ألا أفعل أنا هذا أيضًا أمي؟! ماذا أفعل إن كانت هذه حال البلاد؟

- فقط لا تتعلق بالأوهام يا رائد، أنا أتكلم من أجلك.

- أمي أحتاجُ ألف دولار.

بدأت أم رائد تفرم بعد الطماطم بوتيرة أسرع، وماذا بعدها؟

- إنها الأخيرة أمي صدقيني كل الأمور ستكونُ على ما يرام.

- أصدقك رائد. ثم توجهت سعاد إلى خزانتها في الغرفة المجاورة وأحضرت بيدها صندوقًا صغيرًا حملتهُ بأطراف أصابعها ووضعته أمامي:

- هذا كل ما تبقى عندي.

اقترب رائد من الصندوق وفتحهُ نصف فتحة بحذر، إنها بعضُ الأساور وخاتمُ الزواج وخاتمٌ آخر يرجّح أنه هدية عيد زواجها أو ما شابه.

- ما هذا يا أمي؟! متعجبًا.

- ستفي بالغرض، قُم ببيعها واستخدم المال لإنجاز أمورك.

اقترب رائد من أمه ووضع قبلةً على جبينِها وأخذ الصندوق بين يديه وركض خارجًا.

في الطريق بدا رائد بملامح مُتعبة وعيون لامعة، أنزلَ بعضَ القطرات المالحة من عينيهِ ثم وجد أقدامهُ تقودهُ إلى المنزل من جديد، دخل بهدوء ووضع الصندوق بالخزانة وخرج دونَ البوح بأي كلمة.

في المساء كان السمسار يتصلُ بهِ باستمرار وفي كل مرةٍ كان رائد يغلقُ الخط بوجهه، تظهرُ عليه بعض علامات التوتر ثم يهدأ، يمسكُ الهاتف ويقوم بحظرِ رقم السمسار ثم يعودُ إلى جلستهِ العائلية بضحكة تظهر على ملامحه لأولِ مرة.

ربما يكونُ قرارًا جديدًا صامتًا في الحياة، ولكن كل منا لديه تراكماتهُ الخاصة التي ستنتهي بضحكةٍ ليس لها معنى لكنها تحمل في الحقيقة كل المعاني التي لو تعرَّضت للتفكيك لأصبحت قنبلةً نووية تمشي دونَ مكابح.

أن تكون عاجزًا أمرٌ صعب والأصعبُ أن تكون كسيحًا دونَ ذنب، لك أقدام وأعصاب ولكن لا تستطيع المشي بتاتًا بسبب سلطة تسرقُ كل ما يظهر أمامها، تسرق مستقبلنا وتسرق كل الأحلام التي باتت ضئيلة.

ستصبحُ الحقوق كماليات كما رغيف الخبز، وستصبح الأحلام كتصور سيارات طائرة في القرون القادمة، لكنها على شكل قمح ودقيق، وسيصبح قوت اليوم كما حبوبَ الدواء أمورٌ لا ننالها بسهولة.

في الصباح التالي وأثناء تنظيف سعاد المنزل تجد الصندوق بمحضِ الصدفة، تصرخ من الغرفة:

- رائد ألم تأخذ هذا الصندوق عند الصائغِ لبيعه؟

يقترب رائد من أمه بحركاتٍ مُتثاقلة ويقوم بعناقها ويقول:

- إنها ذكرياتك مع أبي، لن أبيعَ شيئًا منها وقد تخلّيت عن فكرة السفر أمي لا تقلقي.

بدت سعاد أكثر راحةً بهذا الأمر فلطالما كانت خائفةً من موضوع السفَر خصوصًا لتعلّقها الكبير برائد الابن الأصغر.

- أعدك رائد أن الأمور ستكونُ على ما يرام.

- أمي أنا من أعدُك بذلك.

الحاجة تعرضُ صاحبها للاستغلال وأكثر الحلول الممكنة هو التخلّي عن تلك الحاجة من أجل التحرر من كل القيود فالعالم أصبحَ موحشًا والبشر لا ينفكونَ عن الأذية، لقد كان رائد لأول مرةٍ في حياته مقتنعًا بقراره هذا وقد وضع أموره بوكالة السماء لعلَّ غيمة الأرزاق تمطرُ يومًا ما.

جواد – مالُ الموت

لقد كنتُ من الأشخاص المحظوظين، كما يقولون فقد حظيتُ بوظيفةٍ بالعملةِ الأجنبية التي سأتلقى مقابِلها حفنةً كبيرة من الأموال اللبنانية عند الذهاب إلى الصراف، إنها كمية خيالية ولم أحلم بها، لكني لستُ من الذين يتراقصونَ على أوجاع الآخرين، لقد كنت خجلًا من التصريح في بلدتي عن عملي والمرتب الذي أتقاضاه.

لطالما سمعت من الآخرين أن فلان معه عملة أجنبية ولا يهمهُ وضع البلاد وهذا يشتري لأن مرتبهُ بالدولار وأن الجميع من هذه الفئة مرتاحون ماديًا ونفسيًا.

في الصورة المقابلة كنت أعيشُ عوارض الاكتئاب بصمت، مشاكل أسرية، ضغوط عمل ومعاناة، وجع واشتياق بسبب المسافات التي أجبرت خطيبتي ترك لبنان من أجل استكمالِ تعليمها، الملاذ الوحيد للتخفيف من ضغوطاتي كانوا أصدقائي، لقد وضعتُ خطةً لترك العمل بعد أشهر معدودة، يا إلهي هي خطةٌ مجنونة، لكن لطالما حلمت بتأسيس عملي الخاص، ربما مطعمُ أحلامي أو متجر مع قسم للوجبات السريعة أو فتح مكتبتي الخاصة، فلا ضَير في العيش مع بعض الأحلام، أشاهدُ التلفاز كل مساء، أرى وجوهًا دون ماء ما تزال تخرج بوقاحةٍ على الإعلام، أقول في نفسي أنه لو كان باستطاعتي قتلهم سأفعلها دون أن يرمشَ جفنٌ لي، خيالٌ لبعض اللحظات بأني رئيس جمهورية لبنان وقد أصدرت أحكامًا بالشنق على كل الوزراء والنواب والسياسيين، نعم سأعيدُ المشانق معلقةً في ساحة الشهداء لاستذكار جرائمهم الوحشية، زعماءُ حربٍ ومجرمونَ موجودونَ في السلطة، طوابيرٌ على محطات الوقود والمخابز، مواطنون

يُكاسرون أسعار الحشيشِ من البقدونس والنعناع التي كانت سلعًا استهلاكية للفقراء.

الطرقات أصبحت كلعبةِ القنفذ والحفرة وكهرباء الدولة مُنعدمة، المياه التي لطالما ميَّزت لبنان أصبحت تُباع في قوارير بأسعار تجعلك تصاب بالعطش، يمتلأ الرأس ولا مكان لإفراغهِ إلا بجمعةِ الأصدقاء.

أشعر بعض الأحيان بأني خارجٌ عن حديثهم فبالنسبة لهم أوضاعي المادية جيدة، لكني كنتُ أكثر جدية عندما يتعلق الحديث بمشروع يمكنُنا البدء به. كانت هذه السهرة غير كل مرة، بدأ الجميع يطرح مشاريع ما بين الجدية والمزاح...

- إذًا سنفتح معملًا للفحم ربما، يقول علي، إنه فحمُ الأراجيل لا ينقطعُ طلبه ولا يحتاجُ الكثير من الجهد.

- ما رأيكم أن نسطوا على متجرٍ للصرافة؟! يقول عباس.

- ستكونُ رسالة ممتازة إلى أزلام السلطة والسوق السوداء لوقف التلاعبِ بالليرة اللبنانية.

- وسينتهي بنا المطاف في السجن، يقول رائد ثم يضيف: لا مشكلة عندي فبالنسبة لي أنا موجود في سجنٍ صغيرٍ أقفاله موصدة بالحدود.

- لا شكَّ أن لديه غرفةً مليئةً بالأسلحة وكاميرات المراقبة ولديهم أجساد أشبهُ بالأشخاص من ذوي كمال الأجسام، سنتعرض للضرب المبرح قبلَ الاعتقال.

يضحك علي ويضيف، وسنصبحُ أبطال مسجونين حاولوا إيصال رسالة للدولة، بل أظن أننا سنصبحُ مجرمين وسارقين.

ثم بعد صفنةٍ صغيرة يقول رائد:

- ما رأيكم أن نعمل كراقصات؟ سنجني الكثير من المال! يتبع كلامهُ ببعض الضحك...

- للأسف ليس لديك صدرٌ كبير مغري يقول جواد، ثم يطلق علي بعض الضحكات أيضًا...

- لما تفكرون بالمستحيل وبعدم المنطق، لما لا نفتح مطعمًا صغيرًا للوجبات السريعة؟

لاقَ سؤال جواد تناقضًا في الآراء، وبدا الأمر أكثر جدية...

- لن ينجح يقول علي خصوصًا إذا كان في القرية.

يضيف عباس: الناسُ ستذهب الى منطقةٍ مكتظةٍ من أجل تناول الطعام، أما زبائن المحل سيكونون فقط أهالي الضيعة والضّيع المجاورة، ثم إن

هكذا مشروع يحتاجُ عشرين ألف دولار لينجح، ولا أحد حتى أنت لديه هذا المبلغ.

- معك حق يقول علي، والقدرة الشرائية لدى الناس ضعُفت بشكلٍ كبير حتى أن الناس تفضّل طعام المنزل لأنه أكثر رخصًا واستدامة ونظافة.

- إذا فكرنا بهذه الطريقة لن نصل إلى نتيجة، علينا بالمخاطرة يقول جواد.

- أفضّل المخاطرة على أمرٍ يستحِق وليس مطعمًا للوجبات السريعة.

- سرقةُ بنك مثلًا أو السطو على منزلِ أحد الوزراء الفاسدين.

- لكننا عباس لسنا بهذه الأخلاق لنفعل أمرًا مشابهًا! وإلا فكنّا سنصبحُ أغنياء منذ زمنٍ بعيد.

- أقسم أني سأفعلها دون أن ترمشَ عيني ودون أدنى عذابِ ضمير.

- أنا أيضًا، لا شيء لنخسره حقًا لذلك أنا مع رأي عباس يقولُ رائد، لقد سرقتنا البنوك ونهبت أموال الناس وهي تستحق أسوء الأفعال.

- نجيّش الناس من أجل القيام بمظاهرات أمام قصورِ النواب.

- لن يذهب أحد ولا أحد يجرؤ لفعل ذلك بل إن أهالي منطقته سيدافعونَ عنهُ رغم معرفتهم بأنه سارق وفاسد ولم يخدم أحد، ثم يحاولُ جواد الالتفات لـ علي لمعرفةِ رأيه لكنّ تعابيرهُ كانت جدًا حيادية.

- إذًا سنبقى في الحضيض للأبد، إلا إذا فُزنا باللوتو أو اليانصيب أو جاءتنا فيزا من حيثُ لا ندري.

- لا أظن أن الحلّ هو السفر، ماذا سنفعلُ في الغربة؟ يقول جواد، هل سنلتقط الأموال من على غصون الأشجار؟ من منّا يُجيد الأجنبية أو لديه شهادة تخوّله للعمل في الخارج؟ لقد تعلمت اللغة الفرنسية والآن أنا نادمٌ عليها لأنها غير مطلوبة.

- اصمت فبأسوأ الحالات سيكونُ أفضل لنا من هذا البلد.

- وماذا ستعمل قل لي؟

- أعمل عامل نظافة على الأقل لي قيمةٌ هناك.

يستدرك عباس الحديث ويبدأ بتجهيز طاولة اللعب...

- يكفي هراء، مصيرنا مقيَّد في هذا البلد وكما يريدون سيحكمون علينا. لنستمع قليلًا ببعض اللعب.

بدا علي في هذا اليوم كثير الشرودِ والتفكير كأنه يخطّط لأمرٍ كبيرٍ وبنفس الوقت يبدو أنه اكتفى من الكلام فقط ويريد خطوةً جديدةً في حياتهِ، أما عباس لا مشكلة لديه أن يرميَ نفسه للتّهلكة فلا شيء ليخسره.

رائد لديه حبّ حياتهِ وهي الحافز نحو إيجاد حلٍ جذري لمستقبله أمَّا جواد فكان يفتشُ عن حلٍّ يجعله أكثر استقلاليَّة وقُدرة على العملِ بنفسيةٍ تسمح له بالاستمرار.

بعد مرور أسبوع وسط ازدياد الوضع الاقتصادي سوءًا، يتّصل علي بجواد في الصباح الباكر ويطلب منهُ الحضور، مستغربًا من استيقاظ علي في هذا الوقت المبكّر يشغلُ جواد محرّك السيارة وينطلق بأقصى سرعته، يصل بعد خمس دقائق ليرى أن ملامحَ علي هادئة فيأخذ نفسه من جديد.

- تفضَّل جواد، عندي لك بعض الأخبار.

يدركُ جواد أهمية الموضوع فلم يكن علي جديًا في حياتهِ أكثر من هذه اللحظة.

- تكلَّم هيا، لقد توترت أعصابي.

- أتذكر حينَ تكلم أخي كنان عن موضوع التبغ المدفون؟

يجيبُ جواد مستغربًا:

- أي تبغ؟ هل تقصد لدى شركة الري جي؟

- نعم، التبغ والدخان المصادر والمدفون تحتَ الأرض.

- نعم، وماذا أيضًا؟

- أفكّر بخطةٍ من أجل استخراجه من تحت الأرض قبل تلَفه.

- هل جننت علي؟ هذا مستحيل!

- اخفض صوتك جواد، لا أريد لأحد أن يسمع سنجتمعُ في المساء ونتكلّم عن أدقّ التفاصيل.

- أنت تعرف يا علي أني أمشي معك إلى الموت، ولكن ما تقوله مُحال ولا وجودَ لأي أمرٍ يساعدنا لفعل ذلك.

آتونٌ لا مخرج منه

بعلبك – نيسان 2021

بداية مستحيلة – بعلبك

علي

أنا من أكثر الأشخاص الذين يؤمنون بالقدرةِ على تحقيقِ الأمور المستحيلة، لكن ليس هذا الأمر، يتطلّب الوصول إلى المكان المحدَّد ساعتين في السيارة، وهي منطقةٌ أمنيَّة بامتياز، وتحوي المجمع السكني الذي يمتلكهُ أحد السياسيين الأكثر فسادًا، حسنًا لقد سرقَ القرض السكني الذي يستفيد منه معظم الشباب لتسيير أمورهم، بضع مليارات قد وضعها في جيبهِ الخلفي أو في بنكهِ الخلفي الذي يقوم به بتغطيةِ كافةِ عمليات النصب والاحتيال وسرقة المال العام ونهب الشعب اللبناني. هل هذا مؤشر لي للمضي قدما بهذه الخطة؟ ولما لا، حدث هذا في الفيلم الإسباني " " la casa de papel حيث قامَ مجموعة من السارقين بالاستيلاء على بنك إسبانيا معبّرين عن رفضهم للسياسات داخل الدولة وهذا ما نحتاجهُ بالتحديد ولكن الفرق أنهم يمتلكونَ كافة الإمكانيات ونحن لا، لا نمتلكُ سوى الأمل الضئيل.

نحتاجُ للدخول إلى أرض الري جي إلى حفرِ نفقٍ تحت الأرض بطول عشرين مترًا على الأقلّ وذلك بعد التأكد من الحراسة الموجودة، نحتاج مساعدة من كنان من أجل التغطية الليلية، الأمر أشبهُ بالمستحيل لكننا سنقسِّم الخطّة إلى خمسةِ أقسام، القسم الأول حيثُ سنذهبُ بزيارةٍ إلى المنطقة كسياح واستكشاف المكان والتحرّي عن جميع الأمور المُحيطة بموقع الخطّة ومعرفة ما إذا كان هناك كاميرات مراقبة والأمور الحيوية هناك.

القسم الثاني من الخطَّة هو من أجل تحضير المعدَّات والأمور اللوجستية من بينها أدوات الحفر وأكياس النقل والسيارة التي ستقلنا والتفكير بكيفيةِ

اجتياز الحاجز العسكري وكيفية التنقل خلال أيام الحفر. المرحلة التالية تبدأ بعد الوصول إلى المكان أي عند انتهاء من حفر النفق، عندها تبدأ عملية الحفر التالية للوصول إلى الكنز أو إلى البضاعة، المرحلة الرابعة هي عمليةُ استخراجِ البضاعة وللتأكد من جودتها لضمانِ أننا لن ننقلَ مجرد نفاياتٍ فاسدة، وأخيرًا مرحلة نقل البضاعة إلى برِّ الأمان، يتطلَّب تنفيذ الخطَّة شهرين تقريبًا نظرًا لصعوبة عملية الحفر بسبب طبيعة التربة الصخرية وسنحددُ الوقت لاحقًا بعد اجتياز المرحلة الأولى.

- ماذا إن لم نجد بضاعة هناك؟ كيف سنضمن أن كلّ العذاب الذي سنتكبده لن يذهب سدى؟

سؤال جيد يقول علي متوجهًا بالكلام إلى رائد:

- هنا يأتي دور كِنان ليقول لنا ما الأيام التي سيتمُ فيها مصادرة البضاعة وتحضيرها للتَّلف.

- إذًا تقصدُ أن البضاعة التالفة أو التي تحضَّر للتَّلف هي التي يتمّ دفنها في أرض " الري جي " والتي سنقومُ بالاستيلاء عليها يقول عباس.

-هذا صحيح يجيب علي وسنحرص على نقلِ كمياتٍ كبيرةٍ عند إيجادها.

- وهنا تأتي المرحلة السادسة من الخطَّة وهي عمليةُ التسويق بسريةٍ عاليةٍ وبأسعار تنافسية.

يكمل جواد من بعيد...

- إذًا حانَ وقتُ تقسيم الأدوار يقول علي، سيكون جواد الجندي الخارجي من الخطَّة، لن يكون هناك لكننا سنحتاجُ مساعدتهُ بكلّ مرحلةٍ من هذه المراحل.

يصرخ رائد من بعيد...

- وهل سنقوم بعملية الحفر بمفردنا؟ يستطيع مساعدتنا أثناءَ الحفر

اسمع رائد يقاطع علي...

- لا شيء لنخسره نحن، جواد لديه عمله وليس مضطرًا لكل هذا ولن نُدخل أيّ شخصٍ غيرنا في الخطَّة ونحتاجهُ هنا لمساعدتنا، عددنا أربعة ولا نمتلك إلا أن يكون هناك شخص ليرمي لنا طوقَ النّجاة في حال فشلنا وأن يكون اتصالنا بالعالمِ الخارجيّ.

- أوافق علي يقول جواد، ثم أنكم ستحتاجونُ الدَّعم المادي للقيامِ بالخطَّة وأنا الوحيد مَن أعمل هذه الفترة ثم إنكم ستحتاجون سيارتي في حال أردتم التنقُّل.

- يا شباب هل هذا حقيقي يقول عباس، أقصدُ أن حفر نفق بطول عشرين متر لن يكون بالأمر السهل!

- إنه الجزء الأصعب من الخطّة معكَ حق، ولكن ماذا لدينا لنخسره؟ نعيش من قلَّة الموت في حضيضِ الكرة الأرضية ثم يكمل علي...

- لدينا مشكلة صغيرة فقط وهي إقناعُ كنان بالأمر فلا يمكننا التحرُّك دون معرفة إحداثيات الداخل ورصاصتنا الرابحة ستكون إحداثيات كنان من هناك.

- هذا الأمر أتركه لي، يقول عباس، سأفعلُ ذلك أثناء رجوعهِ من الخدمة الأسبوع المقبل.

- بل في الغد قبل ذهابهِ يقول علي، لا وقت لدينا لنضيعه.

- فليكن، خيرُ البرِّ عاجله، يقول عباس.

- يا شباب ماذا سنسمي تلك الخطة يقولُ رائد

- خطة النسور، ما رأيكم في هذا؟ يقول علي مستهزئًا.

- كلا، سنسميها خطة الفهود، هذا مغري أكثر، يرد رائد.

- بل خطة آر جي استنادًا إلى اسم الشركة هناك " الري جي " يقول جواد، ثم يكملُ متوجهًا بمصافحةٍ رباعية دائرية.

قد حان وقت خطة آر جي يا شباب...

- يوافقُ الجميع على اسم الخطَّة ويضمُّ كل واحدٍ منهم كفَّه فوق كفِ جواد، لقد حان وقت العمل.

الذهاب إلى الهاوية

رائد

لِما لا، قد تبدو الخطَّة مستحيلة لكنها الأملُ الوحيد من أجل صناعة رأسمالٍ صغير والتعبيرِ عن غضبنا، ذهبت في ذلك اليوم إلى القبو في الناحية الخلفية من المنزل، أوقفني بيتُ العنكبوت المتدلّي من السَّقف ثم بعض الأغراض القديمة الذي احتفظ بها أبي عن جدِّه، شوبكٌ قديم، طاولة لعب قديمة، وعدة مصبات من القهوة، بعد عدة محاولاتٍ للبحث وسط انبثاق الغبار في أنفي وجدته، إنه معولٌ قديمٌ ورفش فولاذي، ثم مقصّ كروم، سنستخدم هذه الأدوات من أجلِ تنفيذ خطّتنا، سنحتاجُ أيضًا قفازات وبعض السكاكين الحادَّة التي يستعملونها في الأدغال وسنتجنَّبُ استعمال المصابيح والإضاءة لعدمِ إثارة الشكوك ولفت الأنظار.

في المساء نجتمع جميعنا، كل واحدٍ منا يعرضُ ما حصلَ عليه وما يُمكن أن يساعد في الخطَّة، أعرض أنا المعدَّات التي حصلتُ عليها من القبو، يقوم علي أيضًا بإحضارِ معداتٍ من أجل الحفر ويقوم عباس بإحضار حقيبة ظهر كبيرة وبعض أدوات الإسعافات الأولية، سنحتاجها بكل تأكيد.

عيون الجميع قلقة كأنها تقول وتتساءل إن كان ما نفعله حقيقيٌ أو مقبول أو مشروعٌ دينيًا وكل ما كنَّا نعرفهُ أننا أصبحنا مستعدّين للمرحلة الأولى من الخطة، أخذنا الأدوات الأكثر متانةً وراحةً لنا في العمل، حَزمنا الحقائب جميعها من أجلِ عملية الاستكشاف التي تأتي من المرحلة الثانية وحان وقت الدبلوماسية.

في المساء يتغامزُ الجميعُ على كنان الذي يبدو وكأنه في عالمٍ آخر!

- كنان نحتاجكَ في موضوع، يصرخ عباس.

- ماذا هناك أخبرني؟

- لكني أخاف أن تّخيبَ ظني، يقاطعه.

إنها لعبةُ العواطف ولربما عباس قادرٌ على تأديةِ هذه المهمَّة من أجل استفزاز كنان لمساعدتنا.

يُجيب كنان: أخبروني رفاق ماذا هناك؟

ثم يبدأ علي بالكلام: أتتذكر موضوعَ أرض الري جي؟

- أوه نعم وأنا أنتظر أن يقومَ الضابطُ بالسماح لنا بأخذِ نصيبنا من الموارد الموجودة.

يستغربُ الجميع وينظرُ كل واحدٍ منهم إلى الآخر ثم يسأله جواد عن قَصده.

- يقوم الضابط كل فترةٍ بأخذ نصيبهِ من السيجار العريض قبل تعرضهِ للتلّف، وعليه يقوم بتوزيع الباقي التي تعتبر بالنسبةِ له موارد بخارج موضعِ اهتمامه مثل عُلب السجائر والتبغ المعدّ للنرجيلة ويورّعها على العرفاء والجنود الذين ساعدوه وهذا ليس حبًا بهم بل لكي يغطّي على أعماله.

- وكم مرةٍ يحدث هذا في الشهر؟ يسأل جواد.

يجيب كنان: مرة واحدة في الحقيقة.

ثم يقاطعه عباس: إذن لسنا بحاجةٍ إلى الخطَّة إن استطاعَ كل شهرٍ أخذ حصَّته.

ثم يُكمل كنان: أقصد مرةً واحدةً في السنة، وفي أكثر الاحتمالات مرتين، ثم عن أي خطةٍ تتكلَّم؟!

- ماذا تقول؟ مرةً في السنة؟ يجيبُ علي باستهجان.

- حسنًا إذن، سنقول لكَ ماذا نريد يقول عباس، لقد بدأنا بخطةٍ من أجل الاستيلاء على البضاعة في أرض ريجي قبل إتلافها.

- هاهاها يضحك كنان، هل تظنّون أن الأمر بهذه السهولة التي تتكلمونَ عنها؟!

- لقد خطَّطنا لكل شيء، يقول جواد، وأنت ستكونُ خارج الموضوع لا تقلق لكن علينا جمعُ بعض المعلومات منك.

- هذا خطيرٌ يا شباب وقد تذهبونَ إلى طريقٍ مسدود.

- نحن أصلًا في طريقٍ مسدود، قل لي إلى متى ستبقى في معاش السخرة هذا؟ مليونين؟ سيكفونك فقط كنفقاتٍ للذهاب من وإلى خدمتك العسكرية، ما الذي تنتظره أمام هذه العبودية التي نعيشها قل لي؟!

- اصبروا قليلًا عليّ بإمكاننا الانتظار بعض الوقت.

يقاطعه علي: لقد قضينا حياتنا كلّها في الانتظار وأنا مصرٌ على تنفيذِ الخطة.

صمتٌ داخل الغرفة، ينهض كنان ويتمتمُ ببعض الكلمات غير المفهومة، ثم يغلق الباب ببعضِ البرود، يتناقل الجميع نظراتهم وتبدو أيديهم مشدودة إلى بعضها ثم يصرخُ عباس فجأةً ويقاطع هذا الصمت:

- ما هذا الغباء؟ هل هناك بعد من يفكر بهذه الطريقة؟ نحن نعيش أشبه بحياة الجحيم وليس لدينا شيء لنخسره!

يقف علي من مكانه ويُومي بحركة إيماء برأسه ويقول: سنستمرُ في الخطة.

المرحلة الأولى

الاستطلاع - السعديات

لبنان

تردّد قاتل

انطلق علي رائد وعباس عند الساعة السادسة صباحًا، خرائط الهاتفِ تشير إلى رحلة ساعةٍ ونصف في السيارة، ولكن كان عليهما الذهاب بالباص لأن جواد في دوامه وسيأتي نهاية النهار ليقللهما عند العودة، في الطريق هدوء تامّ وحذر، يتناقل الجميع النظرات ويتهامسونَ قبل كل حاجز يَصلون إليه.

- إذًا لدينا إلى الآن أربعة حواجز بينهم حاجزٌ للدَّرك، يقول عباس وهو ينظر من نافذة الباص.

- كل هذه الحواجز ليست خطرة فلن يكون حظُنا سيئًا ليفتشوا السيارة، يحدثُ هذا فقط في حال هناك إخبارية عن وجود مهرّبين مثلًا، يقول رائد.

يُجيبه علي: عندما نقوم بخطَّة بهذه الخطورة، علينا أخذ أسوأ الاحتمالات، ثم أننا لن نتكلَ على الحظ لأننا نعرف حظوظنا!

يضحك رائد ويتابع: نؤكد على حظِنا العاثر إنهُ إن خطَّطنا الذهاب للبحر سيصيبهُ الجفاف أنا متأكد.

يتابع الثلاثي الكلام وينظرون إلى خرائط الإنترنت وبعد حوالي ساعتين يصلونَ إلى الوجهةِ المحدّدة، تظهرُ أمامهم مساحة كبيرة جدًا من الأشجار على طرفِ الطريق ومن ملاحظتهم لآلياتِ الجيش عرفوا تحديدًا مكان الثكنة العسكرية، إنها في أرضِ الري جي نفسها، بعض الصمت والهدوء يجلسُ علي على حجر على جانب الطريق يراقب الأشجار وطريق العربات، تبدو الأشجار صغيرة جدًا لبُعد المسافة وتبدو الأرض وَعرة للغاية، أرضُ الري جي تبدو كنقطةٍ أمام أنظارهم تفصلهُم بينها منحدرات وَعرة وحُطرة وكمياتٍ كبيرةٍ من الأشجار.

- إذًا سننزل لاكتشاف المكان؟ يسألُ رائد.

يجيب علي: علينا الوصول إلى النقطة التي تفصل نهاية الأرض وأرض الري جي، لا شكَّ أنه سور ضخم علينا التخطيط للحفر تحته من أجل الدخول، الثكنة تبدو أنَّها بعيدة بعض الشيء عن الأرض، لن نعرفَ هذا إلا عند الوصول.

- هيا ننزل، يقول رائد متحمسًا.

يصرخ عباس مقاطعًا حماس رائد: هل أنت مجنون؟! هناك مسافة ساعتين سيرًا على الأقدام.

ثم يقاطع على كلامه وهو يتقدَّم عبر المنحدر.

- رفاق لن أذهب معكم، يقول عباس.

يجيبه رائد بأن يبقى ويُبقي هاتفهُ بين يديه ثم يقول له وهو يسقطُ من أعلى المنحدر المنحني دون سيطرةٍ على أقدامه: " كلبٌ جبان ".

يتضاءل صوت رائد أمام عباس كأنه الصدى، الآن عرف الجميع أن وقتَ الكلام انتهى وحان وقت العمل بجديَّة.

منحدر الأمل – علي

أتذكَّر عند الوصول شعرتُ بالإحباطِ الكبير، الأمر خطرٌ جدًا لكني قررت المضيّ قدمًا، اقتربتُ من المنحدر وأسقطتُ جسدي كذلك الذي يرمي نفسهُ للهلاك، وجدت أقدامي تفقد السيطرة على السرعة أو هو العكس، كنتُ ورائد نسقطُ كأنها أجمل سقطةٍ في العالم لكنها الأخطر ووجدنا نفسنا أخيرًا في نهاية المنحدر، بعض الجروح والكدمات على أقدامنا وحين نظرنا إلى الأعلى عرفنا أننا في ورطةٍ كبيرة، لكننا الآن لن نفكرَ بطريقِ العودة... علينا التقدُم.

قطعنا الأشجار والصخور والنباتات الشوكية، تلطَّخت أقدامنا بالدماء الذي امتزجت على رؤوسِ الأشواك، حتى وصلنا إلى نقطةٍ لا نستطيع العبور فيها بسبب كثافة النباتات، كانت الأخيرة قصيرة ولكنها متشابكة ببعضها البعض، حاول رائد العبور لكنّه أطلق صيحةً كبيرةً بسبب انغرازِ الأشواك في أقدامهِ لكننا أكملنا.

بعد ساعتين من المشي على أقدامنا وبعد نصف ساعةٍ من العذاب ونحن نشعر أن أسفلَ أقدامنا أضحى مثل الغربال، وصلنا إلى المكان وهناك كانت الصدمة، لا حواجزَ بين الأرض التي عَبرناها وأرض الري جي سوى شريطٍ شائك، حاولنا العبور منه، تمزَّقت قمصانُنا ونهش الحديد جلودَنا، لكننا على بعد أمتارٍ من الكنز الثمين، بعد دقائق نجحنا في العبور، نحن الآن في خطوةٍ متقدّمة، حاولنا خفض رؤوسنا الملوّثة بالدّماء والغبار لكيلا يرانا أحد، حاولنا إزالة بعض التراب في مجرفةٍ صغيرةٍ حتى بانت أكياس التبغ والسجائر، مذهولون بما رأينا، قرّرنا الانسحاب لأننا لم نعد نقوى على الاستمرار ولا

على حمل كيلو واحد من الموادِ الموجودة، وكل ما كنّا نفكّر فيه هو كيفية العودة بطاقةٍ نِسبتها واحد في المئة.

اقتربَ الغروب، لا ماء معنا ولا طعام وقد أضعنا الطريق الذي جئنا منه، نمشي ولا نعرف الاتجاه، نحاول التقاطَ إرسال على الهاتف من أجل التكلّم مع عباس دون جدوى، وأخيرًا بصيص أملٍ عندما رأينا إحدى الأبنية التي من المُفترض أن تكون دليلًا لنا للعودة.

تبِعنا اتجاه الأبنية وقد خارت كل قوانا، كان رائد قد حمل كيس من التنباك يزنُ تقريبًا عشرين رطلًا، رماه خلفه بعد أن فَقد كل طاقته، وأخيرًا الهاتف يرنّ، إنه عباس وكان شديدَ القلق علينا بعد أن حاولَ لأكثر من ساعةٍ الاتصال بنا...

- أين أنتم؟ لما تأخرتم كل هذا الوقت؟

- عباس اتصل بجواد وقل له أن يأتي ليقلّنا إلى المنزلِ بسرعة.

- حسنًا حسنًا سأفعل، أعطني الأخبار أول بأول.

وصلنا إلى المكان حيث سقطنا من المُنحدر في أول تهور لنا ونحن أمام مشكلةٍ كبيرة، تسعةُ أمتارٍ تقريبًا تكاد تكون مستقيمةً توصلنا إلى نقطة الوصول حيث ينتظرنا عباس، لا طاقة، ولا ماء، ولا طعام، نحتاج حبلًا للتسلُّق وعلينا الاتصال للحصول عليه.

مجددًا يتصل علي بعباس ويطلب منهُ أن يتدبَّر أمرهُ بإحضارِ حبلٍ ينزلهُ لهما للتسلُّق.

يقوم عباس بالبحثِ يمينًا ويسارًا علَّه يَجد ما يكون أشبه بشريطٍ طويلٍ أو حبلٍ قديم، لكنه لا يجد، يبتعدُ أكثر ويبحث بين كومةٍ من النفايات وبين أزقةِ الشوارع ولكنه لا يجد سوى كبلًا للكهرباء يبدو أنه وُضِع أسفل عامودٍ تمهيدًا لإصلاح بعض التمديدات، يتردَّد في التسلُّل من أجل أخذه، لكن لا

حلَّ آخر، يأخذ الشريط ويذهب مسرعًا إلى المكان، يُلقي به للأسفلِ ويتصلُ بأصدقائه من أجل التمسّك به.

بعد الكثير من الجهود ينجح علي ورائد في التسلُّق وهما مُنهكان وأصابهما الإرهاق والجوعُ والعطش، وحان وقت انتظار الانطلاق إلى القرية، كان منظرهما يستدعي القلق، ثيابٌ ممزَّقة، كدمات وجروح وآثار دماء على أقدامهما، يصاب عباس بنوبةٍ من الخوف والقلق بعد رؤيتهِ لهذا المظهر.

- ماذا حدث؟ هل لاحقكما أحد تكلما؟!

لم يكن يقوَ رائد وعلي حتى على الكلام وإطلاق حروفِ التطمين، وبدل إضاعة هذه الطاقة سأل علي إن كان عباس قد اتّصل بجواد.

أزمة في أزمة – جواد

إنه دوري في القسم الأول من الخطَّة، أدرتُ محرّك السيارة وانطلقت، حددتُ موقع الخطَّة حيثُ أبعد حوالي ساعة ونصف، كنت قد بحثت عن الوقود للسيارة ليومين متتاليين دون جدوى، أزمة الوقود في تصاعد وطوابير المحطَّات قد أصبحت طوابير الذلِّ والموت، كنا قد وضعنا الخطة " ب " في حال عدم تواجد الوقود، لكني لم أستسلم وانطلقت للبحث عن بعض البنزين في المحطات التي أصادفُها في طريقي إلى الموقع، محطات الوقود مُقفلة جميعُها، بدأ التعرُق ينتابُ جسدي، أحاولُ تحسّسَ هاتفي وأنا أقوم وأبحثُ في سجلّ الأرقام تارةً وفي سجل الطريق تارةً أخرى، وأخيرًا وصلت إلى محطةٍ مفتوحةٍ حيث الطابور هناك لا بأس به، انتظار لمدة عشرين دقيقة تقريبًا، أراحني الموضوع بشكلٍ كبيرٍ وشكرت اللّه في سرّي، أنا الآن على بعد عدةِ سياراتٍ فقط قبل وصول دوري لتعبئةِ الوقود، وفجأةً وإذ بسيارةٍ رباعية الدفع تجتازُ الطابور وتحاولُ أخذ دورها في الحصول على البنزين الأمر الذي أثار غَضب السيارة الأولى، كلمة من هنا وهناك جعلت الموقف يتصاعد حيث أشهرَ أحدهما السلاح على الآخر وانتهى الأمر بدوريةٍ من المخابرات وإقفال المحطَّة حتى اليوم التالي حسبَ ما تناقل الناس الأخبار في السيارات المنتظرة، بعض الغضب والانهيار، حاولت كبتَ غضبي من أجل قرارٍ حاسمٍ ينقذ أصدقائي، اتصلتُ بعلي وأخبرتهُ بالانتقال إلى الخطة " ب " التي تقضي بعودتهما في السرفيس وهذا يشكّل خطرًا كبيرًا في إثارة الشكوك لكنه كانَ الحلّ الوحيد أمامهم.

برائحةِ التنباك المدخنة في الأرض أخذ الثلاثي السرفيس بعد إغراء السائق ببعضِ المال، من أجل عدم أخذ ركابٍ آخرين، مبلغٌ من المال أخرجه

ثلاثتهم من أجل إرضائهِ، وأخيرًا وصلوا القرية حيث التقوا بجواد ونقلهم إلى منازلهم من أجل الاستحمام والتحضير لليوم التالي.

لم يكن الموضوع سهلًا بتاتًا، ولم يكن بالسهولة التي رسمت بالخطة، ولكنهم اكتشفوا الثغرة الكبرى من أجل التحضير لخطةِ آر جي وهو عدم وجود الصور الذي صوره كنان لهم وبالتالي لا حاجة للحفر بل للاجتياز والعبور بسلام.

تقييم مريح – عباس

لقد أخافتني كمية الدم التي كانت تنزفُ من علي، تخيلتُ لوهلة أنهم تعرَّضوا للضرب من حراس المكان وأحسستُ بالذنبِ يتزايد لعدم ذهابي معهم، لقد كانت ساعات طويلة من الانتظار، لم تكن بُنية جسدي تساعدني في النزول ولا وضعي الصحيّ مع الربو، لقد كان مناسبًا أن أبقى في الخارج وأدركتُ أهمية العنصر الخارجي في الخطَّة، لكل عنصرٍ دور مهم في تنفيذِ هذه الخطَّة وعقلي الفضوليّ ما يزال إلى الآن يتساءل عن النتيجة التي وصلنا إليها.

لم نتكلَّم طوال الطريق كي لا يسمعنا سائقُ الباص أو يشكّ بأمرنا، رائحة التنباك المُمتزجة برائحةِ العرق كادت تصيبني بالإغماء، وصلت المنزلَ وحاولت ألا يشعر أحد بي، دخلتُ الحمام وجعلت الماء يتدفَّق على جسدي وأعادتني ذاكرتي إلى كلّ ذلك الوقت الذي قضيتهُ في الدراسة في روسيا ومعاناتي في التواصل مع الناس قبل أن ألتقط اللغة وساعات الانتظار على محطات الحافلة، تذكَّرت تعب أبي الذي وصل إلى سنّ التقاعد وما يزال يتنقل في باصهِ الصغير دون مللٍ بحثًا عن قوت عيشنا، انتابتني نوبةٌ من البكاء حتى سمعت طقطقةً على باب الحمام، لقد كانت أمي تطمئن عليّ، لقد قضيت تحت الماء أكثر من نصفِ ساعةٍ دون أن أشعر.

- هل أنت بخير عباس؟

- نعم أمي أنا بخير لا تقلقي.

إنها الحاسة السادسة لدى الأم، لطالما كانت أمي تشعرُ بانطفائي، حتى أنها كانت تهاتفني إلى روسيا وتختار الوقت المناسب لذلك، كانت كلماتها حانية كمسكنات للألم تطفئ لوعةَ أوجاعي وتمدُّ بصبريَ المحدود.

انتظرت المساء بفارغِ الصبر لنجتمع، وعرفتُ كافة تفاصيل ذلك النهار وتشابك الأشواك بين أقدام أصدقائي.

- إذن لا وجود لنفقٍ نحفره؟

يجيب رائد: لا وجود إلا لنباتاتٍ كادت تقتلنا وتقتلع أعضاءنا وتسلخُ جلدنا، لقد وصلنا إلى المكان ممزَّقين وقد خارت كلّ قوانا حتى أننا لم نحضر معنا أي بضائع.

يقاطع جواد: هل تقصد أنكم وصلتم للبضاعة؟ هل كانت تحت الأرض؟

يجيب علي: لم نحفر أبدًا، كانت هناك عدَّة أكياسٍ على وجهِ الأرض تحوي التنباك.

- ولم لم تحضروها؟ يتساءل جواد.

- لم يعد لدينا مثقال ذرةٍ من الطاقة، ولكن يمكنكَ القول أننا أجرينا مسحًا للمكان وسنعودُ ولدينا صورة عن الصعوبات التي اعترضتنا.

- ماذا بشأن النباتات الشائكة؟ لن أضطر للمرور عبرَها صحيح؟!

- كلا، يقول علي. سنحيك خطةً مُتكاملة، تذكَّروا معي كل الصعوبات التي مررنا بها قبل الوصول.

- إذن المنحدر الكبير، النباتات الشائكة، الطريق الوعر، إضاعة طريق العودة، الجوع، العطش، التعب، الخوف ثم بعض الضحك.

- سنضع إذن خطةً لكلّ صعوبة، أمَّا عن التعبِ والخوف فأظنُّ أن كل معلومٍ سيساهمُ في إزالةِ الخوف والتعب من نفوسنا، وسنأخذ كل احتياطاتنا وسنتوقَّع الأسوأ.

يضيفُ عباس: سنقوم بتحضير حقيبة نملؤها بالطعام والماء تخفّف عنا عبء الجوع والعطش والتعب.

- أمَّا الأشواك يقول جواد ستتطلَّب عمل ثلاثة أيامٍ لإزالتها لذا عليكم المُكوث هناك في المنطقةِ كسائحين.

- فكرة جيدة، يقول علي. لكن هذا الأمر سيثيرُ الشكوك.

- ليس لدينا حلٌ آخر، يضيف رائد. سنستأجرُ بيتًا صغيرًا لمدة شهر لأن لا أحد سيقبلُ أقلّ من ذلك.

- إن أقلّ الإيجارات هناك فوق المليونين، يقولُ عباس.

- لا مشكلة في ذلك طالما أننا نطمح بمبلغ يفوق المئتي مليون، يقولُ جواد.

- هذا صحيح، لا مشكلة في ذلك ولكن على كنان مساعدتنا لإيجاد منزل، حبذا لو يشاركنا في الخطةِ فدورهُ بغايةِ الأهمية، يصيحُ رائد وهو يتّجه نحو علي.

- لم يكن يعرف حتى بعدم وجود سور أو أنه أخفى عنا ذلك ليعدلنا عن قرارنا بتنفيذ الخطة.

- لا مشكلة يا رائد سننفذُ الخطة في كل الأحوال.

- أتمنى ذلك يا علي.

- حسنًا ماذا عن طريق العودة؟ يسأل جواد.

- سنقوم بوضع علامات كل خمسين متر وهذا سيساعدُنا على سَلك ذات الطريق الذي قُمنا بإزالة الأشواك منه، وبالتالي تجنّب صعوبات جديدة.

- يا لك من ذكيّ يا علي، أظننا جاهزين للمرحلة التالية يا أصدقاء، يقولُ رائد.

- إذن الخطوة التالية هي المتابعة في إقناعِ كنان من أجل مساعدتنا على استئجار منزلٍ رخيص، يقول عباس.

- أظنّها الخطوة الأصعب يا عباس مع أنَّها من المُفترض أن تكون الأسهَل.

في فترة الظهيرة يأتي كنان وخطيبته إلى المنزل ويفتح علي مجددًا الموضوع معه.

- عليك مساعدتي يا كنان وأعدك ستكون خارج الموضوع.

- هل عدتم إلى موضوع الري جي يا علي؟ هذه مخاطرةٌ كبيرة!

- أرجوك كنان، أنا أعرف ماذا أفعل، أريدك أن تجدَ لنا منزلًا لاستئجاره.

بعد أخذٍ وردٍّ بدا كنان أكثرَ مرونة، وفي حديثهِ عن المخاطر المُحتملة أصبحَ أكثر اقترابًا من أن يقتنِع، فلم يعد يتكلَّم البتّة بموضوعِ الحلال والحرام.

- سأبحث لكم عن منزل، ولكن لا أعدك بشيء وستتحملُ مسؤولية كافة المخاطر، أقصد أنني معكم ولكن لا أريد أي خطأ.

- شكرا لكَ كنان، يقول علي: سأنتظرك بفارغِ الصبر وأعدك أن لا خطأ سيحدث، ثم صمت قليلًا وأكمل... أعدك أنك لن تخسر وظيفتك فأنا أعرف ما هي الوظيفة بالنسبة لرجلٍ مرتبطٍ بفتاة أحلامه.

لم يكن كنان كما تصوَّرناه جميعًا عنيدًا ومتشبثًا برأيه، وشعر علي بأن أخيه بدأ يقتنع شيئًا فشيئًا بخطةِ آر جي، وقريبًا سيصبح عضوًا أساسيًا في العصابة، أنا متأكد من ذلك.

تمرُّ أربعة أيام، تغيبُ بها لقاءات الأصدقاء كأنَّ الخطَّة أصبحت مدفونة والكلّ رَهن إشارة إيجاد المنزل هناك، حيث سيقطنونَ ثلاثة أيامٍ من أجل عملية شقّ الطريق إلى هناك، حيث الحلم وحيثُ انكسار حاجز الخوف، حيث يضع خمسة شبابٍ حياتهم على شفيرِ القضبان الأربعة ظلمًا، ولكن لا مكان للتراجع بل للتقدُّم نحو المصير الضائع بين طياتِ الأشجار والصخور.

جواد الذي كَسر التردّد والذي يعرف أن أيّ إخفاقٍ في الخارج سيُطيح بالخطّة، لذلك أصبح كَمَن يسبح دون وجهة، ولكن يقين اليابسة أمامه. في المساء يحضرُ مبلغًا من المال أو ما يفترض أن يكون إيجار المنزلِ ويزيد ويذهبُ إلى منزل علي الذي أصبحَ قاعةً سرية وشبكة معلومات خطيرة، المنزل الذي جمع الأصدقاء الأربعة في السرّاء، ها هو يجمعهم في الضرّاء والنُّقطة المشتركة أنه منزلُ الأمان، لطالما كان كذلك، والد علي رحمه اللّه كان شخصًا طيبًا وكريمًا وكان صديقًا لأولاده وأبًا حنونًا، لقد عانى الأمرَّين في

سبيلِ لقمة عيش تلك العائلة، حيثُ كان يذهب إلى وظيفته في الصَّباح الباكر ويعود في المساء وقد قدَّم كل ما لديه في تلك الوظيفة الحكومية، وفي النهاية أصيبَ بالمرض وبدأ التنقل بين مستشفيات هذا البلد، والكلّ يعرف معنى الشيخوخة والمرض والتنقل في مستشفيات لبنان، لم تكن طوارئ المستشفيات سوى مكان سريع تصل إليه لتنتظر، تنتظرُ كل المعاملات التي تضمن حقّ المستشفى من المال، والحظُ الوفير حين لا يكون الثمن هو وفاة المريض، لقد فُضحت الكثير من المستشفيات في الآونة الأخيرة والكثير من الطواقم الطبيّة في ملف استبدال أدوية السرطان بالماء وبيعه دواء وتسبيع وتثمين الدواء والأخطاء الطبيّة الجَسيمة، وينتهي كل شيء برجلٍ قريبٍ من الدولة، مسؤول أو وزير ليطمسَ كل الحقائق، لذا حان وقت الانتقام، الانتقام من الدولةِ بنسبة لا تُعَدُ بطاقةً صفراء ولا حتى إنذارًا شفهيًا، لقد حان وقت تنفيذ خطة آر جي.

عنصرٌ جديد – كنان في الري جي

لقد أصبحَ المكان مألوفًا بالنسبة لي، أذهب إلى خدمتي كل يومٍ وأعود مثل الرجل الآلي، أظنّ حان الوقت لتغييرِ شيءٍ ما والانطلاق نحو حياة جديدة، عندي الكثير من الأصدقاء في الخدمة وبعض الجيران من أهل المنطقة، لطالما كان الجندي يتطبعُ بطباعِ المنطقة حيث تكون خدمته فيُكوّن نمطًا عامًا عنها وعن سكانها وحتى أنه يُقيم بعضَ الصداقات هناك، صاحب الحانوت ومطعم الفلافل والمقهى والسوبر ماركت؛ لذلك من السهل السؤال عن منزلٍ للإيجار هناك، وبالفعل أرشدني أحد الأصدقاء إلى منزلٍ موجود في المنطقة ويبعدُ فقط مئة متر عن الثكنة وبالتالي عن أرض الري جي، ولكنهُ قال لي بأن المنزل قديمٌ ويفتقدُ لبعض الشروط الصحيَّة، على العموم سيكون الإيجار رخيصًا هناك وهذا هو طلبنا، لا أصدِّق بأنني بدأت الكلام بصفةِ الجماعة، أنا الآن فعلًا متورطٌ في خطة آر جي نسبيًا، لكني لا أعرفُ كم سأخوض فعليًا هذا الطريق.

اتصلتُ مساءً ب "علي" أخبرته عن المنزل ومواصفاته ولم يمانع أبدًا وبدا سعيدًا بمساعدتي، أعطيتهُ العنوان وكافة التفاصيل وسيقومُ هو وأصدقاؤه بالباقي، شعرتُ بداخلي بطاقةٍ كبيرةٍ تجتاحني والأدرنالين داخل رأسي يزداد، أنا متحررٌ أخيرًا يا ريما وسأقوم بالمستحيلِ لأجلكِ.

يحرس أرض آر جي جنديان من الثكنة، وهم تحتَ رتبتي، لذا يجب أن أكونَ بجانب أخي في خطتهِ، سأساعدهم إلى الرَّمق الأخير وسأعملُ جاهدًا كي أحافظ على وظيفتي، أحتاجُ بناء المنزل في أسرع وقتٍ ممكن، لقد مضت سنوات كافية في الخطوبة وحان وقتُ التفكير بالاستقرارِ والزواج.

اتصلت بريما في لحظة حبٍّ دون أن يكونَ هناك موضوع معين، فقط كنتُ أحتاج أن يقول لي أحد بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وقد قالت لي ذلك بصوتها بعيونِها وتردّد كلمة أحبكَ على مسامعي.

المرحلة الثانية – السعديات

منزلُ الفئران

صدمة غير متوقعة – عباس

لقد وصلنا المنزل في الصباح الباكر، كان ناطورُ البناء قد استقبلنا في الخارج عندما وصلنا، نظرنا إلى المبنى من الخارج يبدو بناء قديم وشرفاته متشابهة مَطلية باللون الأصفر الفاتح، الوضع يبدو جيدًا إلى الآن، لحقنا بالناطور وها نحن ذا داخل المبنى، ظلامٌ حالِك في وَضح النهار، أشعلنا هواتِفنا وتوقفنا لبرهة.

- إذًا ألا يوجد كهرباءٌ هنا؟

- كهرباء هههههه يضحكُ الناطورُ مستهزئًا.

- هل قلنا نكتة؟ يصرخ عباس.

- في الحقيقة هي أجمل نكتةٍ في العالم بل أجمل نكتة أسمعُها في حياتي.

نظرنا إلى بعضنا البعض بعض الوقت ثم يقاطعُ الناطورُ صمتنا.

- الكهرباء لا تأتي هنا إلا عندما تأتي كهرباء الدولة، إن كنتم محظوظين فساعةٌ في اليوم.

- إذًا يبدو أننا سنصعد على الدَّرج ولن نستخدمَ المصعد، يقول رائد ضاحكًا.

- لحسن حظّكم لا، فغرفكُم في الأسفل.

بعض التمتمات غير المفهومة من "علي" و"عباس" أما أنا أحاولُ النظر يمينًا ويسارًا لأرى ما يقصِد في الأسفل.

- تفضلوا ورائي. ثم يذهب إلى الزاوية حيث يظهر درجٌ صغيرٌ مكونٌ من ثلاثِ طبقات ثم الباب.

- هل هذا هو المنزل؟ يصرخ عباس: هذا مستحيل، إنها محضُ خرابة.

يضربني رائد بكعبِ حذائه ويطلب مني الصمت.

يذهبُ الناطور بعدها وتبدأ موجة الهستيريا.

- هذا مستحيل، لن نسكنَ في هذه الخرابة، إنها أشبه بحظيرةٍ للحيوانات.
- ربما هي مناسبة للخطَّة فهي أكثر أمانًا ولا تُثير الشبهات، يقول علي.
- لا تثير الشبهات؟! هههههه ثلاث شباب قرروا السكن في حظيرة صغيرة لا يَعيش فيها إلا الفئران، أوه نعم هذا مثيرٌ ولا شبهة فيه أليس كذلك!

يقاطعهُ رائد: ماذا كنت تتوقع إذن؟ نحن لسنا باستجمام! علينا تنظيفُ المكان.

كومةٌ من الغبار في كلّ خطوة، إضاءةٌ خفيفةٌ تستعملُ فيها بطارية صغيرة، ومصباحٌ كهربائي بالكاد يكفي لرؤية فأر يمرّ بالجوار، الأرض إسمنتيَّة مليئة بالأوساخ وقشور البطاطا المتعفّنة، إنها غرفة ونصف، مكان نفرشُ فيه بعض الإسفنج الذي أحضرناه وحمامٌ يتّسع فقط لجسدٍ عامودي وبالكاد لأمر آخر لا أظننا سنستخدمهُ، ودلو ماء وكَيلة صغيرة يبدو أنها للاستحمام.

ملأنا الماء في الدلو وبدأنا التنظيف بعد أن أقنعنا أنفُسنا أننا سنقضي فيه فقط بضعةِ ساعاتٍ في الليل تكفينا للراحةِ لأخذ الطاقة لليوم التالي.

ضحكنا كثيرًا، شعرنا بالدوار، بالرغبة في التقيؤ ثم الرغبة في الانسحاب، لكننا لم نفعل، الأمر يستحقُّ العناء، طريق الخطَّة محفوف بالمفاجآت والمخاطر ولا وقت للقرف.

- هل تعرف يا رائد ما هي الأمور التي تجعلك رجلًا؟ يضحكُ ثم يجيبُ نفسه: إنها الغربة والجيش وخطة آر جي.

يضحكُ علي وهو يزيلُ دخان سيجارة رائد ويقول:

- هذا ما كان ينقُص " دخان سجائركَ ".

بعد التنظيف أصبح المكانُ صالحًا للنوم نسبيًا، بعض أدوية الحشرات كانت كفيلةً لنرتاحَ نفسيًا وضوءُ المصباح الخافت أعطى تلك الصبغة من الرومانسية أو المشاهد المَنسية، لا حاجةَ للضوءِ كمن يطفأ النور ليأكلَ

الطماطم المتعفِنة مع علمه بأنها غير صالحة للأكل، وبموضوع الأكل كانت علب الجبن المثلثة هي الحلّ، يفردُ علي رغيف الخبز على دائرة النايلون الخاصة بربطةِ الخبز، يفتح المثلثات، أربعةٌ منها ربما ويمسكُ الرغيف ويحرّك كل طبقةٍ على الأخرى كي يأخذ كل الرغيفِ نصيبه من طعمِ الجبن، أمَّا أنا فكانت ألواح الشوكولا أمامي مخزَّنة بحقيبةِ ظهري ونصف ذائبة بسبب الحرارة، وكانت دواء الجوعِ عندي، أمَّا رائد فقد حاول كَبح جوعهِ قَدر المستطاع دون جدوى، حاول البحثَ عن مطاعم قريبة لكنه لم يَجد، وكانت مثلثات الجبنة تنتظره في الغرفة وخاض طريق علي، بعد الطعام حاولنا المشيَ على رصيفِ الطريق ولكن سرعان ما عدنا لعدمِ إثارة الشكوك لدى الجيران، كانت محاولات النوم صعبة لنا جميعًا، ننظر لبعضنا البعض كأننا نسأل بعضنا بعيوننا عما نفعله غير مصدّقين أننا سننامُ بهذهِ الخرابة.

- إذًا سنستيقظ في الصباح الباكر لنبدأ بشقّ الطريق، يقول علي.

- نعم لقد جهزت كل شيء: الحبال – المجرفة – النواكيش – المقصات – الطعام، يقول عباس.

- وبالنسبة للطعام سنحضرُ المياه الباردة من السوبر ماركت في الصباح فهو يفتح عند الفجر.

- عظيم جدًا يا شباب والآن يجب أن نخلدَ للنوم ليرتاحَ جسدنا فلدينا يومٌ حافلٌ غدًا.

قبلا صرير الحشرات، دقائقٌ من الصمت المدقع، أظن أنه في طريقنا لعدمِ إثارة الشكوك فعلنا العكس، هذا ما كنتُ أفكر فيه، لكن الوقت قد حان للخروج من هذا الآتون المظلم، قد حان وقتُ التنفيذ.

أرض الري جي

الطريق للغنيمة

تموز 2022

علي – مهمةٌ شاقة

في الصباح الباكر، تبدأ المَهمة، ننزلُ المنحدر الذي نمتلكُ ذكرى سيئة معه ولكن هذه المرَّة لدينا المعدَّات كاملة، ربطنا الحبل في قاعدةٍ حديدية في الأعلى وتبرَّع رائد في القفز لأننا مضطرين لإخفائها في النهاية. كانت المرحلة الأولى هي الأصعب وعلينا الآن بدأ المَسير نحو تلك الأشجار التي تبدو صغيرةً من بعيد، حملت مقصًا كبيرًا وجهزتُ نفسي من أجل التقطيع، وها نحنُ نصِل بعد نصفِ ساعةٍ من المشي في أرضٍ وعرة، بدأنا قصّ الأشواك أمامنا وكنَّا نضعُ علامة كل مئةِ متر من أجل الرجوع، كانت الإصابات هذه المرَّة قليلة تقتصرُ على عدم الانتباه فقط، أمّا الجزء الأسوأ فهي فقاعات دائرية بين أصابعنا بسبب استعمال المقصّ والمعول والمجارِف، بعد ساعتين من العمل خارت كلّ قِوانا وقرَّرنا العودة قبل أن تبدأ الشمس بالارتفاع، لدينا وقت يجب احتسابهُ من أجل العودة.

- إذًا " عباس " ما رأيك بهذه التجربة؟ يسأل رائد.

يحبس عباس بعض أنفاسه متجاهلًا كلام رائد، تبدو عليه علامات التعب والإرهاق ويبدو جليًا أنه يفكّر كيف سيصلُ إلى نقطة الانطلاق. أما أنا فكنت قلقًا من وضعهِ وحاولت أن أضع استراحة كل نصف ساعةٍ مدتّها عشرُ دقائق.

بعد قليلٍ شعرت بارتجاجِ هاتفي، إنه جواد، توقفنا قليلًا حاولتُ رفع الهاتف قليلًا لكي ألتقط بعضَ الإرسال ولكن دون جدوى، ثم تركت رسالةً قصيرةً له تطمئنه أننا بخير.

- إنه هناك بأمان، لا شكَّ أنه العنصر الأسعد بالخطة، يقول رائد.

- كل منّا له دور يا رائد لقد ساعدنا بالمال لدفعِ إيجار المنزل ومصاريف خطتنا.

- تقصدُ تلك الخرابة؟

- أيًا يكن، لا شيء لنخسرهُ نحن، لكن جواد لديه وظيفتهُ وعملهُ وليس مضطرًا للمخاطرة، ثم أننا نحتاجه في الخارج.

- لدى جواد السيارة المناسبة لنا عند الحاجة، فيها لوغو العمل وإشارة الإسعافات، نستطيع المرور بها عبر الحواجز، يقول عباس.

- لا يا " عباس " لن نفعل هذا، لن نخاطرَ بهكذا أمر لأن رائحة السيارة ستثيرُ الشكوك.

- إذًا ما الخطة يا " علي "؟

- دعنا الآن نصِل فأنا مرهقٌ وأحتاج بعض التركيز للوصول.

بعد ساعةٍ يصل الثلاثي أسفل المنحدر، يُخرج " رائد " حبلًا من جيبهِ على رأسه قطعة حديدية منحرفة ويرميها للأعلى، ثم عدة محاولات قبل أن تعلق ويصعد الجميع للأعلى بعد يومٍ متعبٍ ومثمِر، لقد أصبح نصف الطريق الآن مفتوحًا ويمكننا الوصول بأقلّ الأضرار.

في المساء وكما الأمس تبدأ الكلمات تتكرَر عن القرف والاشمئزاز من المنزل، ثم يُقنع الثلاثة أنفسهم بالنوم بعد حلولِ التعب عليهم.

- ماذا إذا وصلنا ولم نجد أي بضاعة؟ يصرخُ رائد فجأةً وهو يأخذ وضعية الاستقامة من مكانه:

- وهل تظن أننا نفتح طريقًا لهذا اليوم؟ كلا فنحن سننتظر إحداثيات "كنان" من أجل يوم الغنيمة، يجيب علي.

- يا شباب هناك فأرٌ أسفل إسفنجتي

بعض الهلع والضحك يتمُ السيطرة على الموقف.

- سننهي العمل في الغدِ حتى لو بقينا لوقتٍ متأخر، لن أبقى ليومٍ آخر في هذه الخرابة.

- أوافق على ذلك، يقول رائد، ثم أننا تقريبًا قد قطعنا نصف الطريق.

- أظن أن الأمر صعب إلا في حال بقينا لوقتٍ تحرقُ الشمس جلودنا.

- لا مانع عندي أن يحترقَ جلدي يا " علي " سنفتح كامل الطريق في الغد، يقول عباس. ثم يقاطعهُ رائد:

- إذًا سنذهب قبل ساعةٍ أو ساعتين.

- لدينا مشكلة المشي في الظلام، لست مضطرًا أن أمشيَ على الصخور وأغرز أقدامي بها، سنضطرُّ لذلك للتوقف عن العملِ باكرًا.

- أظن أن الذهاب قبل ساعة من انطلاقنا هي فكرةٌ جيدة، يقولُ رائد.

- فليكن ولكن علينا الآن خوضُ تجربةٍ جديدة، يقول عباس.

- ماذا تقصد بالتجربة الجديدة يا عباس؟

- هل جربتَ قبلًا الاستحمام على نبع العاصي؟ يسأل عباس مستهزئًا.

- لا تفكر حتى بالموضوع سننهي العمل في الغدِ ونشد الرحال إلى القرية، يقول علي.

ثم يكمل رائد: تشبيه جيد فرائحة المجرور في الحالتين موجودة ثم بعض الضحك ويكمل...

- نم يا عباس لن يأكلك الصيبان هذه الليلة يمكنكَ الصمود.

يخلد الجميع للنوم ويبقى عباس مستيقظًا، لم يعتد عباس هكذا أوضاع في حياته، وكانت فكرة الاستحمام ما تزال في عقله، يقتربُ بحذرٍ من الحمام، يفتح خرطوم الماء ويحاول ملأ الدلو بالماء.

- " عباس " ما هذا الصوت؟ ماذا تفعل؟ يصرخ رائد من بعيد.

- نم أنت واتركني وشأني سوف آخذ حمامًا، لن أنام وهذه القذارة على جسدي.

يضحك " رائد " وهو يحاول التلصص على الحمام، ثم ما هي إلا دقائق حتى يغطّ في نومٍ عميقٍ بعد أن نالَ منه التعب بعد يومهِ الطويل في شقّ الطريق.

أحيانًا نضطر للقيام بأمور مجنونة لم نتصوّرها أبدًا، فقط من أجل الوجود، من أجل تحصيل مجرّد حقوق قد أصبحت بالنسبةِ لنا أحلام، كل ذلك من أجل غنيمةٍ مؤقتة قد تجعلنا سنة مرتاحي الجيوب ولا نقلق من المرض لأن لا قدرة لنا لشراء الدواء، ولا نقلق من الجوع لأن لا قدرة لنا على شراءِ الطعام، سنة ربما كافية من اجل أن يصبحَ الدولار ثابتًا وتمشي الأعمال من جديد.

في الليل، بعض القلق المُختلط مع صريرِ الصراصير، يُمسك رائد هاتفهُ ويحاول مراسلة خطيبته التي لم تكفّ خلال النهار الفائت محاولاتها للاطمئنان عليه، وترك رسائلها دون إجابات.

- لقد قلقت عليك كثيرًا طمئني فور تلقيك الرسالة.

- أنا بخير، أقضي بعض الوقت الممتع مع أصدقائي في الجبل.

لم يكذب رائد في ذلك فهو فعلًا يقضي وقته مع أصدقائه في الجبل، لكنه لا يستمتع أبدًا، لقد كانت خطيبته هي الطاقة التي يستمدّها في الليل من أجل إفراغها في النهار.

اليوم الثاني

تموز 2022

وقتُ الوصول

عباس- شغف الوصول

إنه اليوم الثاني، انطلقنا قبل ساعةٍ كما اتفقنا في الأمس، نزولٌ ثم مسيرٌ ثم تبدأ عملية قصّ الأشواك والأوراق المتشابكة في الطريق، تبدو عيوننا أكثر لمعانًا كلَّما اقتربنا من الهدفِ أكثر، أصبحت أرض الري جي على نظرنا تقريبًا، تفصِلنا بينها عدة أمتارٍ من الأشواك والنباتات القصيرة، وها نحن ذا أمام حُلمنا، نقف بعد أن فقدنا كل طاقاتنا، لقد حقّقنا القسم الأول من الخطَّة بنجاحٍ ونحن أمام أرضٍ ترابيةٍ مدفونٌ تحتها كنز ثمين أو ربما لا، كورقة يا نصيب بين اثنتين، الأولى رابحة والثانية خاسرة، ولكن لا قُدرة لنا على العمل، بل سنوفّر تلك الطاقة من أجل طريق العودة.

تفحّصنا المكان قبل الدخول، هناك حاجزٌ على بعدِ مئة مترٍ فقط، فيه يجلسُ جنديان من الثكنةِ للحراسة، حاولنا عدم إثارة أي ضجيجٍ ونحن نختبأ خلف الأشجار، تفحّصنا المكان جيدًا ككاميراتِ مراقبة تمهيدًا للعودة، الأرض، مستوى انحدار الحفرة، الحراسة ونوع التربة، نعرف الآن أن الخطَّة إلى الآن تسير على قدمٍ وساق، أمَّا أقدامنا فبالكادِ تمشي والساق تجرُّ الأخرى، حان وقتُ العودة إلى المنزل.

- ونحن نهمُّ بالمغادرةِ سمعنا صوتَ شاحنةٍ كبيرة، بتريُّثٍ راقبنا ما يحدُث، شاحنةٌ مملوءة بالبضاعة يتمُّ دفنها حاليًا، يا لحسنِ حظنا، وقفنا ننتظر، عدَّة أشخاصٍ يقومون بعمليةِ الدفن والحرَّاس يقتربون من المكان، ربما نحن الآن مضطرون للمغادرة بعد أن أصبحت اللقمة في الفم، لكننا سنعودُ حتمًا لاستكمال خطّتنا، خطة آر جي.

- ماذا هل سنغادر بعد كل هذا التعب؟ يسأل رائد.

- لم يكن أصلًا هذا جزءًا من الخطة، خطّتنا تقضي بالعودةِ فيما بعد، بعد التنسيق مع كنان.

- لا نحتاج كنان يا " علي " انظر لكلّ تلك البضائع التي تنزِل من الشاحنة!

- لن نخاطرَ بتضييع الخطة يا رائد، سنعود أعدك بذلك.

- ستكونُ البضائع قد تلفت تحت الأرض، يقول عباس.

- ماذا إذن؟ سننتظر غيرها!

يضربُ رائد قبضتهُ على الشجرة ويقول: سنعودُ يا ري جي انتظرينا.

تمضي بضعة أيام، تركنا مكان استئجارنا وعاد كل منّا إلى منزله، الدولار صعدَ إلى أرقامٍ قياسيةٍ جديدة والوضع الاقتصادي يتفاقَم، ننتظر جميعًا استئناف خطتنا ونزول بضاعةٍ جديدة، ننتظر الكلمات على شفاهِ كنان بحسرة، نقضي أجمل عمر لنا في فعل اللاشيء، فقد أصبح أكثر أمر نجيده، نعيش بفراغٍ عارمٍ كبير ننتظر مصيرنا المدفون تحتَ الأرض، الفراغ يقتلنا، لم تعد تُجدي لعبةُ ورقٍ تافهة أو جولة على ألعاب الفيديو، لم تعد المباريات موضع اهتمامنا ولا الكلاسيكو موضع تنافُسِنا، لقد أصبح يجمعنا فقط تلك الفسحة الصغيرة من الأمل للخروج من أتون الفقر هذا، ننتظر مصادرةَ الدولة لشحنةٍ من البضائع كي نستكمل ما بدأنا به.

في اليوم التالي يتلقّى " كنان " اتصالًا من أحدِ أصدقائه.

- سيقومون بتنزيل شحنةٍ كبيرة من البضاعة فيها كمية كبيرة من التنباك والسجائر الإلكترونية، يجب أن تستعجِل كي تنال حصتك.

على الفور أبلغنا " كنان " بزمان تنزيلِ الشاحنة وسيقوم بدورهِ بعملية إلغاء للحراس هناك أما نحنُ سنبدأ بالحفر وسرقةِ البضائع على الفور.

- هل أنت متأكد كنان أنك تستطيعُ إلهاء الحراس؟

- طبعًا سأفعل يا " علي " لا تقلق من هذه الناحية كل ما عليكم فعله هو نقلُ البضائع من هناك ولا تقلق من ناحيةِ الحراسة سأتولى أنا هذا الأمر.

- اتكالنا على اللّه إذن، يُجيب علي.

ثم يُطلق كنان بعض الضحكات عند سماعهِ هذه الجملة.

يوم التنفيذ

السعديات

لبنان

علي – لقمة سائغة

إذًا كل شيءٍ جاهز، انتظرنا حلول المَغيب وانطلقنا نحو خطّتنا، أصبحَ المنحدرُ نمط حياتنا وكأننا نتزحلق على أرجوحةٍ كالأطفال، لكنها كانت أرجوحة الحياة والموت، الطريق أصبحَ جاهزًا للخوض، لقد ذكرني ذلك بالتتبيلة التي كنا نقوم بتجهيزها ووضعِها في الثلاجة تمهيدًا لعملية الشواء في اليوم التالي، كذلك خطّتنا فهي جاهزةٌ بشكلٍ كلي، قطعنا المسافة ونحن نلاحق العلامات الذي وضعناها سابقًا على الصخور والنباتات والأشجار، كنا هادئين والخطة كانت تمشي بكل سلاسةٍ قبل أن يصرخَ رائد فجأةً:

- يبدو أننا أضعنا الطريق!

- كنت على وَشك أن أقول الجملة ذاتها، يجيبُ رائد.

ثم يقاطعهم علي: أتذكّر أننا وضعنا علامةً كل مئةِ متر، والآن قطعنا قرابة المئتين دون وجود أي علامة.

بدأ العرق يسيلُ من رأسي بغزارة ودقات قلبي تتسارع، هل فعلًا أضعنا الطريق؟ لكني أتذكَّر هذه الصخرة وشجرة البلوط تلك ثم وأنا في عاصفتي تفكيري لمحتُ الوشاح الذي ربطناه في الشجرة...

- ها هو يا أصدقاء، لا بدَّ أن الهواء قد أفلته من مكانه.

- هذا جيّد، يصرخ رائد، إذن لدينا طريقين أمامنا ولا ندري أي طريقٍ نسلك بين الأشجار.

- دعونا نتذكَّر يا أصدقاء، يقول عباس.

- ليس لدينا وقت، علينا الوصول والعودة قبل أن يختفيَ الضوء عن طريقنا.

- الطريق من هنا، يصرخُ رائد وهو يدلّ بإصبعهِ على الطريق الأيمن.

- هل أنت متأكد يا رائد؟ يقول علي.

- نعم أنا متأكد من هذا ثقا بي يا أصدقاء.

- ليس لنا العادة أن نثقَ بك، يقول عباس ضاحكًا.

ثم يكمل الثلاثي بالطريق الذي اختاره رائد.

رائد – قرار صائب

أصبحت القيادة الآن من مسؤوليتي، لا أعرف هذا الإحساس الذي جعلني أختار الطريق الأيمن لكني كنت أعرف أني لن أتوقف أبدًا، كنت أمشي والخوف يتملّكني كل خطوة، لأني بكل مرةٍ أخطو أبتعد خطوة عن الطريق الصحيح، هذا في حال كان الأخير خاطئًا.

- نعم ها هي، يقول علي مشيرًا إلى العلامة ثم يفتح الوشاح المربوط ليظهر رقم عشرون، نحن على بعد مئتي مترٍ من أرضِ الري جي يا شباب كِدنا نصل.

تنفَّست الصُّعداء، إنها إشارةٌ من اللّه، أنا معك يا رائد هذا ما كنت أقوله في نفسي، لأجلك أمي لأجلك خطيبتي سيستمرُ كل هذا وسننجحُ في الخطة.

أكملنا المسير وها نحنُ نصل، هذا لا يصدق، نحنُ في أرض الري جي بعد نصفِ ساعة من إفراغِ كنزنا وكل ما علينا فعله هو نقلُ هذا الكنز إلى مكانٍ آمن بين الأشجار وبعيدًا عن الثكنة العسكرية...

يركضُ رائد من فرط الحماس إلى منتصفِ الأرض، يمسكُ المِجرفة ويبدأ بالحفر قبل أن تظهرَ أمامه كرتونة كبيرة تظهر بها صناديق ورقية من السجائر الإلكترونية باهظة الثمن ثم يصرخ:

- يا شباب لقد نجحنا، لقد نجحنا.

يركض علي نحو مصدر الصوت فقد أصبحت الإضاءة خفيفة بعد غياب الشمس، وفجأة تنغرزُ أقدامه بالوَحل والمواد المتعفّنة سابقًا. يحاول إخراج قدم فتعلق الأخرى، نركض نحوهُ محاولين مساعدته فيقعُ رائد هو الآخر بالوحول ثم يصرخ من بعيد:

- توقف عباس توقف!

في ورطةٍ لم نحسِب حسابًا لها، نقف مكاننا والوقتُ يَضيعُ بيننا وها نحن ذا نبعد عدة خطواتٍ عن كنزِنا.

- عليك إحضار الحبل من الحقيبة يا عباس وحاول الرجوع بهدوء كيلا تقع.

حاولَ عباس الرجوع بشكلٍ خلفي، أقدامه ثقيلة ومتعبة وأصبح حذاءه كبناءٍ شاهق العلوّ، يحاولُ حمل خطواتهِ المتباطئة بجسدٍ هزيل، وأخيرًا وصل، يُحضر الحبال ويربطهم بالشجرة ثم يرمي الطّرف الثاني نحو حفرة الري جي، الحفرة التي نغرق فيها والكنز معًا.

أصبح طوق النجاة معنا الآن وحانَ وقتُ جمعِ الغنائم.

عباس – صرخة نجاة

بدأنا نقلَ الصناديق بعزمٍ قوي، كميات كبيرة من التنباك الأجنبي عال الجودة، لقد كان ينقصنا بعض الكمامات من أجل كَبح الرائحة القوية الصادرة من التنباك الطازج الممتزج بالمتعفن، البضاعة الجديدة الطازجة كانت على وجهِ الأرض، لم نكُن نحفر سوى نصف مترٍ وأقلّ للوصول إليها.
لاحظت نظرات الفرح وعدم التصديق على وجهِ رائد وعلي، ثم كانت ترتسم في وجهي ابتسامة تلقائية.
نقلنا ما أمكننا إلى الأرض السطحية أعلى الحفرة، لقد بَدت مثل كنز علي بابا بالنسبة لنا ولا أحد يصدّق أن مجرد حديث كانَ بين أصدقاء أربعة قد تحولَ لخطةٍ ناجحةٍ نحو الخروج من الوضع الاقتصادي الخانق والانتقام من الدولة.
أصبحنا الآن متفرّقين عن بعضنا عدة أمتار، علي يجمعُ المعدّات والحقائب، رائد ينظفُ أحذيتنا من طبقاتِ الوحل وأنا أحاول جمع البضائع في مكانٍ واحد.
سمعت خلفي وقع أقدامٍ وصياحًا من بعيد يقول: " يا شباب ".
عند التفاتي للخلف كنت أتوقعُ رؤية علي أو رائد لكن ما رأيته جعلني عاجزًا عن الصراخ أو التحرُك، جنديان من الجيش اللبناني مدججين بالسلاح يتقدّمان نحوي، لم يكن صوتي يخرجُ من فمي، كنت أحاول القيام بأيّ إشارةٍ تحذيرية دون جدوى إلى أن اصبحَ الجنديان قريبين لدرجةٍ توضّحت ملامحهما أمامي وصرختُ بصوتٍ عالٍ:
- اهربوا يا أصدقاء.

بدأتُ الهرولة دون أن أنظرَ خلفي، كنتُ أسمع وقع أقدامهما خلفي وأشعر أن يديهما ستقبض عليَّ في أي وقت، حتى شعرت بهذا فعلًا وشعرت بيدين تشدّني للخلف، حاولت الإفلات قبل أن أسمعَ صوت علي وهو يقول لي:

- اهدأ نحن بأمان.

لقد اجتزنا مسافة الرجوع هربًا دونَ أن نشعر، ربما كنا نهرب من مجهول، فقد قال رائد أن الجنديان توقفا عن ملاحقتنا بعد دقيقتين من الركض.

نحن الآن أسفل المنحدر ولا خطر علينا، ننظر إلى الحبل المتدلّي كأنه حبل المشنقة، لكنه كان وقتها حبل الخلاص.

كان جواد ينتظرنا في الأعلى، لم نكن نعرف أنه قادم لكنه كان في المكان المناسب.

رائد – كمشةُ غضب

لقد كانت أسرعُ مرةٍ نصلُ فيها إلى المنحدر ونجتازُ كل هذه المسافة بوقتٍ قياسي، مشاعرُ الخوفِ والتعب لم تظهر أمام مشاعر الإحباط. نظراتنا كانت لا تُفسّر ولم نعد ندري ما نفعل.

- أي ثقةٍ أعطيناها لـ "كنان"؟ لقد كِدنا نصبح وراء القضبان، يصيح رائد.

ثم يضيف عباس:

- أي غبيّ هذا كنان؟! ثم ينظر إلى هاتفه ويكمل.

- لم يُعطنا أي إشعار، كادَ أن يُقبض علينا!

لم ينطق علي بأي كلامٍ ولم يعتد أبدًا توجيه كلام قاس لأخيه حتى في سرهِ وكل ما فعله أنه نزل على ركبتيه محاولًا أخذ أنفاسهِ من جديد.

- لقد فشلنا يا شباب، لا أصدّق أنَّ اللقمة قد وصلت إلى الفم ثم هربت.

لم تمضِ عدة دقائق وكان جواد يركن سيارته ليقلّنا، كانت تبدو عليه مظاهر التوتر والتعب.

- ماذا حدث يا أصدقاء؟ يسألُ جواد. لم يكن تبدو عليه علامات التعجُب كأنه كان يتوقعُ فشل خطتنا.

- لقد كُشفَ الأمر يا جواد.

وقبل أن يكمل قاطعه الأخير:

- قولا الحمد لله أنّ الجنديان لم يقبضا عليكما.

يجيبُ عباس: الحمد لله نعم، الحمد لله على كل مجهودٍ ضائع وكل شعور مررنا به، الحمد لله الذي تخلّى عنا ونحن بأمسِ الحاجة إليه.

يصرخُ جواد عليه وهو يخففُ من سرعةِ السيارة:

- توقف عن هذا عباس، ما حدثَ هو لخيرنا.

- نعم تقول هذا لأنك لم تذُق تعب النوم في غرفةِ الجرادين تلك، ولم تهرُب من جنديين مدججين بالسلاح وهما يلاحقاننا.

يحاولُ علي نكرَ عباس في قدمهِ لثنيهِ عن الكلام، ولكن عباس يتابع:

- لم تعِش ما عشناه ولم تختبِر ما اختبرناه وأنت مرتاحٌ ماديًا ولا تعرف أي شيءٍ عن معنى الحاجة الماسَّة للخطة والأمل الذي وضعناه فيها لإنجاحها.

- أنا أعرف كل ذلك يا عباس ولكن عليك أن تهدأ ولا تخطأ بالكلام، أفهم جيدًا أنكم منهارون عصبيًا ولكن هذا لا يبررُ كلامكم معي بهذه الطريقة.

في هذه الأثناء كان علي شاردًا ينظر من نافذة السيارة وبشكل مليء بالبرود يلتفت إلى جواد في الأمام ويسألهُ:

- كيف عرفتَ أنهما جنديان؟

- ماذا تقصد علي؟

- لقد قلت لـ " رائد " الحمد للّه أننا أفلتنا من الجنديين دونَ أن نكلّمك حتى عن ذلك.

- بل قالها رائد يا علي. ثم فجأة يدوس جواد على المكابح.

- يبدو أنه حاجزٌ للجيش. اهدأ قليلًا يا عباس فأنت تبدو متوترًا.

نتخطى الحاجز العسكري بسلاسةٍ أما حاجر الكلام فلا، لم نتفوَّه بأي كلمة لحينِ وصولنا إلى المنزل، أبقى أنا وجواد وعلي في السيارة وعند الوصول إلى منزلي حاولت استدراك الموقف من جديد.

- أنا أعتذر عما بدر من عباس.

- لا تعتذر يقول جواد، لا ألوم شخصًا غاضبًا، ولكن يا رائد أنا أيضًا أتعبتني الخطة وجعلتني شخصًا سيئًا ودونَ ضمير.

يعيد رائد جسده إلى السيارة ويقول: ماذا تقصد يا جواد؟

- لا شيء يا "رائد " كل أمرٍ سيكونُ مناسبًا عند أوانهِ، تصبح على خير.

- وأنت بخير يا جواد.

هدوء ما قبل العاصفة

لبنان – بعلبك

إحباط مؤقت – بعلبك

جواد - لبنان

وقفت أمام هذا الرجل، كان يبلغ من العمر ثلاثينَ سنة، حاولت مساعدتهُ من خلال دفع عربتهِ المتحرّكة، عرفتهُ عن نفسي... اسمي جواد وأنا هنا لمساعدتكَ.

أتذكرُ أننا تلقينا في الشركة طلب مساعدة من امرأةٍ تقول أن زوجها أصيبَ بشللٍ نصفي، وأنا أضيف الاسم على الحاسوب استوقفتني المعلومات ثم صرخت:

- إنه هو أنا متأكد من ذلك.

أصريت أن أتابع الملفّ وقد نجحتُ في ذلك وقد تعهدتُ أنه المستفيد الأخير قبل أن أقدّم استقالتي وها أنا أمامه أقف بعد عدةِ شهورٍ من تلقيهِ العلاج النفسي وأقدامي ما تزال ترتجفُ لليوم.

- أين وصلت بالعلاج الفيزيائي يا فاروق؟

- أنا أحرِز تقدمًا رائعًا أيها الطبيب، أظنني بعد عدةِ أشهر لن أكون بحاجةٍ إلى العربة.

- ماذا عن ذاكرتك؟ هل تتذكَّر ما حدثَ في ذلك اليوم؟

- لا أتذكر أي أمرٍ صراحة، كلّ ما أعرفه أني تلقيتُ ضربةً مباغتة أثناء نوبة الحراسة خاصَّتي، شعرتُ بالدوارِ وسقطت أرضًا ولم أستعد وعيي إلا بعد يومين في المستشفى.

- إذًا، لقد قالت زوجتك أنك عشتَ وقتًا عصيبًا في الفترة الأولى، خصوصًا بعد تلقيكَ خبر أنك ستكون على كرسيٍ متحرّك.

- لقد كان أصعب شعور في العالم يا جواد، شعوري بالعجز وبأني لن أستطيع إلقاء ابنتي في السماء ثم إعادتها إلى أحضاني، هذا أول أمر فكرتُ به.

- لديك طفلة بطلة إذن، كانت قوتُك في أقصى مراحل ضعفِك.

- هي كذلك وأنت أيضًا أيها الطبيب، لقد وقفت جانبي ولولاك لم أكن لأصلَ إلى هذه المرحلة.

- هذا واجبي سيد فاروق.

أوقفت الدمعة في عيني، إنها المرة الأولى التي لم أكُن أقوم بواجبي بل كانَ كل ما أفكّر به هو التكفير عن ذنبي وطلبُ المغفرة.

أيامٌ من القلقِ المدقِع ليلاً وأنا أفكّر بنظرات ذلك الرجل نحوي، حاولت مرارا وتكرارا إقناع نفسي بأن لا ذنبَ لي بما حدَث ولكن دون جدوى. أصبحت أرى وجهه في كوابيسي وصحوتي، شعرت برغبةٍ عارمةٍ بضربِ كنان لكمات متتالية على وجهه.

في صباح اليوم التالي أصحو وأنا أفكر بالزبون الذي سأراه اليوم، هل سيتمكنُ من المشي مجددًا ورمي ابنته إلى السماء ثم احتضانها؟ أم سيصبحُ مشلول الحركة ويجعلني مشلولَ الضمير؟ أفكارٌ تتراقص في رأسي، لن أنتظرَ الكثير قبل قول الحقيقة للجميع وعلى العموم قد حان وقتها، أيامُ التعبِ في العمل ستنتهي مجرد الشفاء الجسدي والنفسي لهذا الزبون، أمَّا أنا أحتاج الشفاء الكامل من تلك الليلة المشؤومة.

بدأت أفكر بما أقحمتُ نفسي به وهل هذا يستحقُ كل هذا الأمر؟ بدأت أفكر كم من السلوك السيء نضطر لممارستهِ من أجل مجرد حلم صغير، أنا أتحدى الفسادَ بالفسادِ ربما، لكن فسادَ دولتي وقح أما فسادي...! فهي رسالةٌ مؤقتة أن الخروجَ عن القانون ليس بالأمر الصعب والشرّ أهونُ من

الخير، ليس فقط للدولة بل لكل شخصٍ يقررُ الخروج عن القانون وتنمو في رأسهِ أفكار المناطقيّة والعشائريّة والحزبيّة السياسيّة.

كنت أنوي فضح الخطَّة في الجريدةِ والإعلام لإيصالِ مقالي ورسالتي ولكن ماذا سأفعل الآن بعد أن أصبحنا مذنبينَ جميعًا، صرتُ شريكًا في جعلِ رجل بريء يفقد قدرتهُ على التحرُّك لا سمح اللّه.

وصلت العمل وكان الموعدُ الأول، أصابُ بالإحباط مجرد رؤية زوجتهِ تحاول مساعدته في الوصول إلى غرفة العيادة، كنت أريدُ منهُ أن يتذكّرني رغمَ خوفي الكبير، كنتُ أريد أن أرى في عينيهِ نظرات الغضب والنفور، ولكن كلّ ما كنت ألقاه هي نظرات الحب والامتنان.

- إذًا سيد فاروق كيفَ كان أسبوعك؟

- سيد جواد كانت أيامي أفضل من السابق وأنا سعيدٌ بأني أحرزُ تقدمًا رائعًا كل أسبوع في علاجي الفيزيائي، يتوقعُ الطبيب أن أستطيعَ المشي مجددًا في القريب العاجل.

بعض نظرات الراحة، ثم أحدّق في عيون الرجل وأتذكّر نظراتهِ الخائفة في ذلك النهار، أتوتر ثم أحاولُ تهدئة نفسي.

يقاطعني السيد فاروق:

- أظنني رأيتك سابقًا. هل أعرِفك؟

- ماذا تعرفني؟ بعد شهور من العلاج لما شعرت اليومَ بأنك تعرفُني سابقًا؟

- لا أعرف صراحةً، ثم يضحك... معك حق الاستغراب لكن لوهلةٍ معيَّنة شعرتُ أني أعرفك.

- لا عليك سيد فاروق، يخلق من الشبهِ أربعين.

انتهت الجلسة ولكن ليست كسابق جلساتنا، لقد قرأ هذا الرجل أعيني الخائفة والمتوترة، تلك المألوفة لديه في تلك الليلةِ السوداء، تلك العيون

التي رآها في قماشٍ دائريٍ أسود، سينهي أمري إن حدثَ ذلك يجبُ أن أتكلمَ مع كِنان بأسرع وقتٍ ممكن.

التقيت وكنان هذا المساء في جلسةِ الصداقة الاعتيادية. كان رائد وعلي وعباس حاضرين معنا، بالنسبة لهم انتهت الخطة بالفشل، إنه الأسبوع الأول الذي نلتقي به بعد الحادثة وحانَ وقت الكلام.

- أصدقاء هناك أمرٌ أريد قوله لكم.

ثم فجأةً يدخل بعض الأقارب لزيارة " علي " وإخوته، يغلقُ الموضوع كأنه لم يفتح، كأنها إشارةٌ ربانيَّة بالسكوت لأن الوقت غير مناسب. أطلب الاستئذان بالمغادرة ثم أرحل وأنا أراقب عيون كنان التي ترمقني بنظرات الهدوء التام، كأنه يقول: كل شيءٍ سيكونُ على ما يرام.

بعلبك – لبنان

عقدة ذنب

المرحلة الخامسة

كنان – الوجهُ الآخر

بعلبك – لبنان

لقد كانت مجردَ حادثةٍ وجواد يُحمِّل الموضوع أكثر من طاقته، سيكونُ بخير أنا متأكد، لقد قالها لي فاروق وهو في تحسُنٍ تدريجي، لقد روى لي الأخير ما قيل له في غرفة الطوارئ، الضربة كانت قوية ولن تتمكَّن من المشي، احتمالية أن تصابَ بشللٍ نصفي هو احتمالٌ وارد، ولكن الاحتمال الأكبر هو أن تستطيعَ المشي بشكلٍ تدريجي، هذا ما قاله له الطبيب.

اتصلت بجواد والتقيته في قطعة أرضٍ مجاورة في ذلك اليوم.

- إنه يشك بي يا كنان.

- ماذا؟ كيف عرفت ذلك؟

- يقول إنه رآني في مكانٍ ما، هو يُجيد قراءة ملامح الخوفِ في وجهي.

- لن يفعل يا جواد ما لم تقل له أي أمر، هل فعلت ذلك؟

- هل هذا ما يهمّك فقط يا كنان؟!

- ما يهمني أن القسمَ الأكبر من الخطة قد نجح وأن هذا الرجل سيتمكَّن من المشي قريبًا.

- ماذا عن الشباب؟ هل قلت لهم الخطة؟

- ليس بعد يا جواد، المنزل هذه الفترة مكتظٌ بالزُوار خصوصًا بعد مجيء عمي من السفر، لن أضحّي بخطتي من أجل التسرع، سنقول لهم بقية الخطة في الوقت المناسب.

التفت جواد إلى الوراء وهو يضع رأسه بين يديه ويتنقل ذهابًا وإيابًا ثم سألني:

- هل سيتقبّلون الأمر؟

- بالتأكيد إن عرفوا أنّهم نجحوا في الخطة بشكلٍ غير مباشر.

كانت عيون جواد متوترة بشكلٍ هستيريٍ لذلك كنت أفكّر تأجيل عملية التسويق لحين شفاء فاروق لأني لم أكن مستعدًا أبدًا للمخاطرة، كمية البضائع أصبحت هائلة في المستودع وسننتظرُ فقط حلول المرحلة الأخيرة، سينال كل منًا هدفه لكنّي سأمنع جواد من خطوته الأخيرة، لا أظنّ أن هناك بنودَ جزاء لذلك الأمر.

علي – شكوك وبرهان

لقد انتهى كل شيءٍ رغم التحضير الكبير وحبكِ الخطة، كل شيءٍ ذهب بطرفةِ عين، كان أصعبُ ما تلقّيته هو نظرات الإحباط على وجوههم وكأن الشمعة الأخيرة انطفأت وغرق القاربُ الأخيرُ للنجاة.

كان وصولُ جواد بغضونِ دقائق ومظهرهُ المرتبك والتعِب أكثر ما أثار شكوكي، معرفتهُ بالأحداث ووجود جنديين يلاحقاننا دون الكلام عن ذلك والعديدِ من الإشارات، لا شكَّ أنه يخبئ حقيقةً ما وعلى الرغم أن ثقتي به ثقة الكفيف بعصاه إلا أنني على يقينٍ أن هناك كلام في فمهِ ويريد البوحَ به.

خطة آر جي انتهت وأنا أعود لسابق عهدي، أنام في النهار هاربًا من ضوء يكشفُ وجهي وخيبتي، وأستيقظُ في الليل الذي يسترُ قلبي عن كلام الفتيات وتعلّقي بإحداهنّ.

في المساء يطلب جواد أن نجتمعَ سويًا ويقول أن هناك أمر يريد قوله حول خطة آر جي، واخيرًا سيخرجُ ببعض الكلام، لم أكن أريد الكلام عن الحادثة، كل ما أعرفه أني سببتُ لجواد متاعب بخطةٍ فاشلةٍ لم تتحقّق أهدافُها لكن إصرارهُ على ذلك حال دون ذلك، استيقظتُ عند السابعة مساءً كنت أرى مجموعة وجوهٍ أمامي، إنها المجموعة الفاشلة كاملةً.

- أهلًا وسهلًا، ألقيت التحية ثم تلحفت مجددًا.

شعرت بأحد يزيل الغطاء عني...

استيقظ يا علي هناك أمر يريد كنان وجواد أن نراه.

غسلت وجهي وتوجَّهت إلى الخارج، كان رائد يجلس بالمقعدِ الأمامي للسيارة وكان بابها الخلفي مفتوحًا ينتظر دخولي.

- هل سنذهبُ في نزهةٍ على حسابك يا رائد؟

- بل على حساب كنان وجواد ثم بعض الضحكات.

انتقلنا في السيارة إلى منزل جواد قيد البناء حيث هناك غرفة مهجورة يظهر أنها مغلقة بإحكام، لم تكن قديمة ففي زيارتي الأخيرة لجواد لم تكن هذه الغرفة موجودة.

- إذًا يا أصدقاء نجتمعُ هنا لنريكم ما حققتموه بالخطَّة، أتوجه نحو تلك الغرفة والجميع يتبعني باستغراب.

يتقدم جواد بضعة خطوات عني، يمسكُ مجموعة مفاتيح ويحاولُ فك قفل الباب وبعد عدة محاولات ينجح بذلك من خلال المفتاح الأخير. كانت يداه ترتجِف كأنه خائفٌ من التخوين لكني كنت أدرك جيدًا تفكير علي ورائد وعباس.

هدفنا الأسمى هو المال والخروجُ من وضعنا الصعب وتأسيس مشروع صغير ربما يكفينا لعدم التفكير باليوم التالي، فُتح الباب، هو باب الجنة أو باب الجحيم! أطنانٌ من البضائع المؤلفة من أكياس التنباك عالية الجودة وصناديق السجائر الهائلة ذات الأنواع المختلفة، سجائر إلكترونية في كل مكان والسيجار الفاخر كان موضبًا بعلبٍ رباعية. الرائحة كانت قوية بدرجةٍ كبيرة، كانت نظرات رائد المصدومة وتعابير وجهِ عباس واستغراب علي مضحكة للغاية، حان وقتُ كشف خطة آر جي بحذافيرها.

لقد كان ذلك يوم تنفيذ الخطة، إنها خطّتي مع جواد من أجل نقل البضائع من الجهة الثانية وهو طريقٌ إلى أرض آر جي يمرّ بالثكنة، لكنه طريقٌ لا يسلكه إلا الجنود الذي يتهرَّبون من الخدمة، يحفظ كنان المكان عن ظهر قلب فخمسة سنواتٍ من الخدمة هناك كانت كفيلةً بمعرفة كل تفاصيل المكان.

كنت قد اتّفقت مع سائق الشاحنة الكبيرة أثناء تفريغ حمولتها أن يُنزل كميةً كبيرةً في هذا المكان وكان ذلك دون مقابل، حاولت هذا، تقديم رشوة لكن أصحاب البدلة العسكرية أدرى بشِعابهم، قال لي وقتها بأنه سيعطيني الكمية التي أريد لكنه غير مسؤول بتاتًا في حال كُشفت البضائع في مكانها أو أثناء نقلِها، وافقت مع بعض نظرات الامتنان، لم تكن كل الأصابع تتشابه، كان هناك ثلاثة جنود يخيفُني جَشعهم وطريقة تفكيرهم، لا يتوانون عن الأذيّة للحظة، إنهم مثل فسّاد الصف أثناء طفولتي وذلك الذي يُذكّر الأستاذ أنه أعطانا فرصًا للمنزل بعد أن كانَ قد نساه.

هنا بدأت خطّتي الجانبية مع جواد، يجلس الجنديان من الناحيةِ القريبة من أرض أر جي في حين أن الجندي الآخر يكون في الجهة المقابلة.

كان وجود الخطة الأساسية ستثيرُ الشبهة؛ لذلك كان علينا التفكير بالخطة ب، في حال كان الجنديان في أرض الري جي سنقومُ نحن بعملية التنفيذ وفي حال وجود الجنديان بالثكنة فإن الخطة الأساسية ستنجَح.

بخصوص الجندي الآخر اتفقتُ مع شيف المطبخ أن يقدّم فنجان القهوة له وقت المغيب مع القليل من تأثيرِ المنوّم.

لقد سارت الخطَّة بشكلٍ جيد، لقد صرخ أحد الجنديان: هناك حركة في مكان إنزال البضائع. طلبتُ منهما تفحّص المكان وكأني أرسل الخطة الأولى إلى الجحيم، أرسلتهما إلى أخوتي هناك، كنت أعرفُ أنهم سيستطيعون الهرب وكان أمامي عشرونَ دقيقة فقط لنقلِ البضائع الذي سبق وخزّنتها في مكانٍ آمنٍ استعدادًا لنقلها بمساعدة جواد.

دخل جواد الثكنة مع القفازات ووشاحٍ يخبئ به شكله، وذلك بمساعدة جنود الحراسة الذين اتفقنا معهم، وصل مكان البضائع وبدأ بنقلها عدة خطوات إلى الخارج ثم إلى الشاحنة الذي قام باستئجارها، بعد ذلك جئت مع عدة جنود للمؤازرة، وسرعان ما أتممنا عملية النقل، تصلني فجأةً رسالةً من جندي المطبخ، لم يقم فاروق بشرب الكميّة كلها من القهوة فقط عدّة رشفات، لقد كان فاروق حارس الباب الأساسي وكان من الجنود المخضرمين المقرّبين للضباط، كان له علاقات كبيرة مع ضباط الأمن والعمداء، أصبحت أنا داخل الثكنة وجواد يستعدُ لنقل الصندوق الأخير قبل المغادرة قبل أن أراه فجأةً يرمي الصندوق ويختبئ خلف شجرة الصنوبر الكبيرة، نظرتُ من بعيد وإذ بي أرى فاروق وهو يتنقل من جهةٍ إلى جهة ويقترب من مكانِ تواجد جواد.

لقد قُضي علينا، قلتُ في نفسي وبدأت أفكّر في طريقةٍ للهرب، لم يتجرأ أحد القيام بإلهائه خوفاً من كشفِ الخطة والتورط، أمَّا أنا لم يكن نهار خدمتي في ذلك اليوم لذلك لم أستطع فعل شيء، لقد فشلت خطتنا أ وب.

وها هو جواد سيصبح بعد خطواتٍ قليلة في قبضةِ فاروق.

في لحظةٍ فقدت كل الأمل، لقد عشتُ أسبوعًا متأرجحًا بين التفاؤل وعدمه، والآن جواد في ورطة ولا أستطيع القيام بأي خطوةٍ لإنقاذه، لكني في الأخير

قررت أن افعل، يقفُ فاروق الآن مستندًا على الشجرة الذي يختبئ جواد وراءَها ويعطيه ظهره وهو يتكلَّم على الهاتف. سأظهر الآن حتى لو كلَّفني هذا وظيفتي فأنا من أقحمت جواد بهذا.

وأنا أستعد للخروج وإلهاء فاروق رأيتهُ يترنَّح ويقع على الأرض، تقدَّمت بسرعةٍ نحوه رأيت الدِّماء تسيل من رأسه.

- ماذا حدث؟ صرختُ بوجه جواد وأنا أحاول قياس النبض من فاروق.

- لم يكن أمامي حل، كان سيمسك بي لذلك ضربته بالعصا على رأسه، لقد قُضي علينا يا كنان.

- اذهب الآن سأتولَّى الآمر هنا.

ذهب جواد بصوتٍ مرتجفٍ أدار الشاحنة وانطلق، طلبت بعدها من بعضِ الجنود الأصدقاء طلب الإسعاف وما هي إلا دقائق حتى جاءت وتمَّ نقل المُصاب إلى المستشفى.

في اليوم التالي كان موعدُ خدمتي، لم أترك الثكنة سرًا لكني تظاهرت بالوصول صباحًا.

كانت هناك حشود من الجنود والشرطة العسكرية والمحققون، تقدَّمت إلى المكان وتوجَّهت إلى "مارون" صديقي في الثكنة...

- ما الأخبار؟ هل هو بخير؟

- يقول الطبيب أنه أصبحَ في حالةٍ مستقرةٍ لا تقلق.

تنفَّست الصعداء ثم سألته:

- ماذا بخصوص التحقيق؟

- التحقيق يتوجّه أنه تعرَّض لضربةٍ على رأسهِ يرجّحون أنه سقط وارتطمَ رأسه بالجدار.

- ماذا أيضًا يا مارون، هل يشكّ أحد بشيء؟

- لا تقلق الوضع تحت السيطرة يا كنان، هل قام صديقكَ بنقل البضائع؟

- ليس بعد لكنها في مكانٍ آمن.

وفقًا للخطة فقط خبأ جواد الشاحنة في إحدى كراجات المنطقة التي قُمنا باستئجارها، ثم قام بنقل علي ورائد وعباس إلى البقاع.

بعد عدةِ أيامٍ قمنا بنقل الشاحنة إلى هنا ودشنا بذلك نجاح خطتنا.

أصبحت أتتبع أخبار فاروق يومًا بعد يوم، علمت بعدها أنه أصيب بشللٍ مؤقتٍ نتيجة تأثير الضربة، لكنه أصبحَ بخير وهو يتابع علاجه الفيزيائي وسيتمكن من المشي بعد فترةٍ محدودة.

الطريق إلى النجاح له عواقب كثيرة لكننا لم نتصوَّر أنه في طريقنا إلى هدفنا سنحطمُ حلمَ رجلٍ آخر في قدرته على الحياة، ليسامحني الرب.

جواد – في وجهِ إبليس

فتحتُ الباب أمام عيون أصدقائي المصدومة وأخبرتهم كل شيء، لم أكن أقوى على وضع عيوني بمواجهتهم.

أسئلةٌ كثيرة دون جواب. أين؟ كيف؟ والسؤال الأصعب كان من "علي" عندما سألني لماذا؟

- كنا إذن فئرانَ تجارب؟ يضحك رائد. ثم يضيف عباس:

- بل كنا مصيدة الخطة، لا أصدق أنكم فعلتم هذا!

كل ما كنت أريده هو الكلام، أن يتكلَّم كل منهم، لكن "علي" بقي صامتًا وأثار جنونَ أفكاري، كان ينظر لي نظرة الضحية، نظرةَ المحكوم أمام حبلِ مشنقته، فقط سألني لماذا؟

تقبَّل كل من رائد وعباس الموضوع، أمام هذه الكمّية من البضائع فكل شيء يهون، لكنها لم تهُن أمام علي، لم تفعل أمام قوة الثقة التي منحني إياها.

انتهى النهار وذهب الجميع إلا أفكاري بقيت على حالِها، ذهبنا بعدها للسهرة الاعتيادية، تناقش الجميع بعملية التسويق إلا علي، فقط كانَ يطلق بعض الاقتراحات كل نصفِ ساعة، لكن لم يبدو عليه الحماسُ أبدًا.

استجمعت قواي فجأةً ووقفت أمام الجميع وقلت لهم:

- من تظنون إذن قد خاطر بحياته أكثر؟ كانت الخُطة تحتاجُ لنا جميعًا ولكن تذكّروا جيدًا نحن لسنا لصوصًا، نحن تحدَّينا الفساد بالفساد لنخبرهم أن هذا الطريق ليس حكرًا عليهم وبأننا نستطيع ولكننا لا نريد.

- بل نريد، يقول "علي" ثم يكمل...

- نحن نستعيد جزءاً بسيطًا من أموالنا المَنهوبة ومن ضرائبنا التي لا يقابلها أي خدمات.

- هل سنعود لحوارنا الأول؟ يقول رائد ثم يقاطعه علي:

- سنجتاز فكرة أننا كنا مصيدة للخطة الآن، حان الآن وقت التسويق.

توجَّهت الأنظار جميعها نحو علي، لقد دخل مجددًا في مودِ الخطة وأصبحنا الآن نعملُ كعصابة. ثم انتقل الكلام إلى جواد.

- أردتُ الإثبات أني أستطيع ولا يعني إن كنت مرتاحًا ماديًا أنكم خارجَ رأسي، أنا أتألم على بلدي وعلى حالنا نحنُ وكيف أصبحت الحقوق أحلام والراحة صارت كماليات، أردتُ إثبات نفسي أمام دولتي ضمنيًا وأردت هذا التحدّي الذي دخلنا به، لذلك سنكمل للأخير ما بدأناه.

البقاع – بعلبك

البيئة الحاضنة

ظلم مظلوم

عباس

لقد كانت المنطقة التي نسكن بها كأحزمة بؤس قاتلة، على عكس كثير من المناطق التي تستفيد من خدمات الدولة، لقد كان لنجاح خطة آر جي تأثيرٌ جميلٌ في نفسي، لقد بيعت نصف البضائع تقريبًا وأصبحت حالتنا متوسّطة بعد أن كانت تحت الحضيض، بقيت الخطة في منتهى السرية وحان الوقت للانتقال للمرحلة التالية.

الهدف الثاني هو محاربة اللاعدالة وهذا يعني الفاسدين الصغار، مختار منطقتنا " مسعود " ربما، أو صاحب المخبز الذي احتكرَ رغيف خبزنا، أو ذلك البقال الذي أخفى نصفَ البضائع وأظهرها في أعلى مستوى للدولار، وضعت لائحة كبيرة وحان وقتُ الاجتماع.

في المساء طلبتُ من الجميع الحضور وكان الاجتماع هذه المرة في منزلي، وصل الجميع على الوقت، لقد بَدت عيونهم مرتاحةً أكثر من ذي قبل، توطَّدت علاقتنا من جديد، نعم فقد شُغلَ كل منا في الفترة الأخيرة في حياتهِ من أجل إصلاح أموره العالقة، لقد قام علي بتأهيل المنزل من جديد وإنشاء حديقة مجاورة وقد استطاعَ كنان إنجاز حلمه الصغير حين استطاع إكمال بناء منزله للنصف تقريبًا، أما رائد فقد اشترى سيارةً صغيرةً يتنقل بها مع خطيبته ِوقد جرب نصف مطاعم البقاع تقريبًا، أما أنا فأصبحَ عندي نصفُ المبلغ الذي يخوّلني لإكمال دراستي في روسيا، سأصبحُ طبيبًا جراحًا عما قريب، أما بخصوص جواد فيبدو أنه رفض التصرّف بالمبلغ أمام قناعاته بالرسالة الأسمى. على العموم ليس بحاجةٍ ماسَّة لهذا المال، أعتقد أنه من الأجدر أن يوزعه علينا.

- إذًا كيف حال الجميع؟ يسأل جواد.

- أنا بأحسن حال، يقول رائد.

- هل حضرت ورق اللعب؟ يقاطع علي:

- في الحقيقة فأنا أريدكم بموضوعٍ مهم.

- هل أصبحنا من ذوي النفوذ لنجتمع على أمور هامّة؟ يصيح كنان مستهزئًا.

- حان الوقت للخطوة التالية يقول "علي" متوجهًا نحوي.

نعم فقد تكلَّمت مع علي في الموضوع وقد وافق على خطتي.

- الخطة؟! يصرخ جواد متعجبًا وقد توقف فجأة عن توزيع ورقِ اللعب!

- نعم، إنها متابعة لخطة آر جي.

- كنت أظنّ أننا انتهينا، يقول جواد.

- بل لم نبدأ بعد، قلتُ له.

- ماذا تقصد يا " عباس "؟

- ما يقصده هو أننا سنستمرّ بخطة آر جي مستهدفين الفئة الميسورة والفاسدة.

يقف جواد عن كرسيه بشكلٍ عنيف:

- هل جننتما؟! هذا لن يحدث.

يمسك علي يد جواد محاولًا حثّهُ على الجلوس مجددًا.

- اهدأ يا جواد وحاوِل أن تفهم الخطة.

- نحن لسنا بسارقين يا علي، لقد قمنا بخطة آر جي ضدّ الدولة، وكانت رسالتنا واضحة وقد استفدنا من الخطة لتحسين وضعنا.

- وهل تظن أن هذا كافٍ؟ يقاطع كنان الحديث.

- ماذا؟ حتى أنت يا كنان؟ رائد قل لهم أن يكفّوا عن هذا الجنون.

- جواد أظنّ أن عباس على حقّ لن نبقى رهائن هذه السلطة الفاسدة.

- اوه نعم، أنتم جميعًا متفقين إذن!

- بل نحن مظلومون فقط لأن لا ظهر لنا ولا وساطة ولا نُحتسبُ على أحد.

- لقد كنا كذلك قبلًا وأصبح الأمر بأيدينا.

- توقف عن المثاليات يا جواد، هذا كلام هزيل أمام شخص قام باستغلالنا من أجل نجاح خطة آر جي.

- لم أفعل هذا يا علي وأنت تعرف ذلك جيدًا.

- نعم أعرف جيدًا أنك لن تخذلنا وستكملُ معنا.

- أنا خارج الموضوع يا علي، اسمحوا لي عليّ المغادرة.

ينهض جواد من مكانه من جديد ويستقلُ السيارة ويذهب بعيدًا.

- لقد توقعتُ هذا، يقول رائد.

- لا بأس سنكمل الخطة بمفردنا.

- ما الخطة إذن؟ يسأل كنان متجاهلًا كل الأمور التي حدثت.

- سوف نسطوا على المخبز ونترك رسالة هناك سنكتب فيها " توقفوا عن الاحتكار" وسيكون التنفيذ بعد يومين.

- أظننا سنصبح أبطالًا، بذلك قلتُ لهم.

- نعم هذا ما سيحدث إن اكتشفونا لكنهم لن يستطيعوا ذلك.

- يغلق المخبز في فترة ما بعد الظهر ويقوم " سالم " بجردة لأمواله بعد ذلك.

يكمل علي: سوف نكون ملثّمين ونهاجمُ المكان بأسلحةٍ مزيفة.

- هل سنسرق المال إذن؟ يسأل كنان وقد انخفضت نبرة صوته!

- نعم سنفعل ذلك فهذا المالُ حقنا، يقول رائد.

يضحك علي في سرهِ ويتمتم بعض الكلمات.

- ماذا عن جواد سيعرف بالأمر فور انتشار الخبر.

- لن يستطيع فعل شيء يا عباس، لا تنسى انه متورطٌ معنا وأستبعدُ قيامه بأمر متهور، يقول علي.

- هل ما نفعله صحيح يا شباب؟ يسأل كنان فجأة.

- هل تريد اللحاق بجواد يا كنان؟ لن تتركنا بمفردنا أليس كذلك؟ يسأل رائد محبطًا.

- لا أدري يا أصدقاء ولكن...

يقاطعه علي: هل ستعمل لعشرة سنوات قادمة لإكمال بناء منزلك؟

بعض الشرود المدقع من كنان، ينهضُ عن الأريكة متوجهًا نحو باب الخروج ثم بحركةٍ مفاجئة يعود فجأة ويقول:

- أنا معكم يا أصدقاء.

بيضة وجمل

بعلبك – 12 تموز 2022

خطة طوارئ

جواد

لقد تحققت تلك المخاوف التي كانت في رأسي، لم أكن أريد أن تأخذ الأمور هذا المنحى، لكن المحظور حدث ولا أدري الآن كيفية إيقاف هذه العجلة المجنونة، لقد قالها لي جدّي خلال طفولتي " من يسرق بيضة يسرق جملًا " الأمور تتجهُ الآن نحو هذا الجمل مع شديد الأسف، أنا خارج كل تلك الأمور على الأقل وأشعر بالأسى لما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

في المساء أحاول التركيز على بعض الأمور العالقة، لكني مشوش التفكير، يدور عقلي حول حلقة متكررة، أتذكر كل تفاصيل الخطة السابقة وجسد ذلك الرجل المسكين وهو يهوي بكل وزنهِ على الأرض. لقد التفتُ لبرهةٍ وبعدها فقد وعيه، لقد كانت يديّ ترتجف وبقدر الارتجاف كانت قوة الضربة، كأن تلك القوة جاءت من قوة الضغط في عقلي، كانت الخطة متوقّفة على هذه الضربة.

لقد جمعتُ كل المعلومات المتعلّقة بفاروق واستطعت الوصول لعائلته. كان هدفي التكفير عن ذنبي والاطمئنان عن وضعه، كانت زوجته تعمل في مدرسة تابعة للدولة، حاولت الالتقاء بها بصفتي المزيفة، لقد قلت لها أني المسؤول عن ملفّ زوجها الصحي، حاولت إقناعها بالمتابعة النفسية لزوجها فقط من أجل الالتقاء به، التقاء القاتل بالضحية، وللأسف كنت أنا القاتل، عندما أحيل الملف لشركتنا، شعرتُ بالارتياح وعرفت أن " نيفين " قد نجحت بإقناع زوجها، عملت جاهدًا لاستلام الملفّ رغم أنها مخاطرة كبيرة ونجحتُ في عملية المواجهة.

كانت نظراته مرعبة لكنه كان يحمل قلب طفلٍ صغير، شكر مساعدتي له وكانَ شديد الامتنان، كنت أشعر في مرحلةٍ ما أنه يعرفني ويتظاهر العكس وكنت أقطع شكّي عندما أنظر لنظرات البراءة في عينيه.

كنت أدرك أن الفساد قد تجاوز الحدود وأنا على استعدادٍ لأثورَ دون إيذاءِ أحد، كيف لعمليةِ سطوٍ على بائع الخبز - رغم أنه محتكرٌ كبير - أن تعطي نتيجة للنهوض بالبلد الأمر واضح، في خطة آر جي كنا نستهدف الدولة والآن نستهدف الطبقة الفقيرة التي تستغلّ الوضع لتصبح متوسطة، إذا كان هناك مشكلة في تلوث النهر يجب أن نعالج النبع وليس مكان وصوله، لذلك يجب أن أتحرك لإنقاذ أصدقائي من هذه الورطة قبل أن يحصلَ المحظور ويصبح الخروج من هذه الدوامة صعبًا للغاية.

يومين من التفكير والقلق وتحصلُ الفاجعة، أخبار تتناقل عبر وسائل التواصل الاجتماعي عن عملية سطوٍ للمخبز وسرقة أكثر من خمسين مليون ليرة من صندوقه، ماذا؟ بهذه السرعة! أدرتُ محرّك السيارة وذهبت إلى " علي ".

طرقت الباب بعدوانيةٍ كبيرة، يفتحُ كنان الباب.

- ماذا هناك يا جواد؟

- أنت من يجبُ أن يخبرني يا كنان.

- أخبرك بماذا؟

- عملية السرقة التي حدثت اليوم، هل فعلتم هذا بهذه السرعة؟

- الموضوع ليس سرًا جواد، نعم فعلنا هذا.

- وسرقتم خمسينَ مليونًا من الصندوق؟

- إنهم خمسةٌ وخمسون في الحقيقة.

- تقولها وأنتَ فخورٌ بنفسك أيضًا؟!

- اسمع يا جواد، هذا المال هو حقّنا، حقٌّ كل رجل جاء إلى المخبز وبيعَت له ثلاثة أضعاف.

- وهل أنتم تمثّلون كل هؤلاء الأشخاص لتأخذوا أموالهم؟

- لا بأس ستكون رسالة له لإيقاف جَشعه.

- والمال يا كنان! ماذا ستفعلون به؟

- كما فعلنا بخطة آر جي سنأخذه لتحسين وضعنا.

- ولما لن توزعوه على أهل المنطقة؟

- لأن أمرنا سيُكتشف، يقول علي وهو يدخل بالحديث من الغرفة المجاورة.

- والآن ستتوقفون عن فعل هذا هل هذا صحيح؟

- تمامًا، ولكن بعد الخطوة الأخيرة.

- وماذا تنوي يا علي.

- سنسطوا على مركز الخدمات التابع للدولة، هناك حيث تعرِّض العديد للإذلال فقط من أجل تخليص معاملةٍ رسمية.

- سأكون معكم إذن.

- ماذا؟ يصرخ كنان، هل أنت جاد حقًا!

- نعم أنا جاد بهذا يا أصدقاء.

- وكيف تغيّرت بهذه السرعة؟!

- في الحقيقة فإن مركز الخدمات قد جار على كثير من الناس وأهدر لهم حقّهم ووقتهم وأذلّهم أشدّ إذلال، وستكون فكرة جيدة أن نوصل رسالتنا.

- وماذا تفرق عن عمليتنا اليوم في المخبز؟ يسأل كنان.

- لقد اقتنعت معكم، إنه يستحق ذلك.

يدخل في هذه الأثناء " رائد " و" عباس " ثم تسود لحظة صمت...

- يا أصدقاء أعرفُ ما فعلتموه اليوم لا عليكم، أنا معكم من الآن وصاعدًا.

- أهلا بعودتك إذن يا جواد.

كانت الخطة موضوعة في رأسي، سأضعُ حدًا لكل ذلك الهراء ولكي أفعل ذلك سأدخل رؤوسهم وأعرف ما يدور بها، حان الآن وقت إحباط تلك الخطّة وسأفعل ذلك دون إيذائهم ولكني لا أعرف كيف ولا أعرف ما العمل.

البقاع – بعلبك

دائرة الخدمات

علي – ترددٌ قاتل

فجأةً يأتي هذا الشعور في صدري والثُّقل القاتل، لقد اشتقت لنفسي، لطالما أردت أن أصبح رجلًا كثير التفكير والانشغال، ولكن ليس بهذه الطريقة، ستكون المرة الأخيرة حتمًا لينتهي بعدها كل شيء، لقد جعلتني هذه الفترة بقلق لم أفكّر به طوال حياتي، أريد راحة البال إذن، أريد طاولةَ الورق المستديرة وضحكة أصدقائي الخالية من التفكير بالمال والخطر، أريد النوم بطريقةٍ سليمةٍ دون التفكير بالحلال والحرام، أدرك في أعماقي أننا جميعًا نعيش هذا الصراع ولا أحد يريد ما يحدث ولا أحد يُسلم أنه يريد الانسحاب.

في المساء نضع الخطة، لقد أصبحت مهمّة سهلة فمعداتها جاهزة في كل مرة، أصبحت هذه الأخيرة كرأس المال الذي نعتمد عليه، ستكون عملية صعبة هذه المرة، لأن مدخل مركز الخدمات يحرسهُ جنود من الدرك وهم مسلحون، سنقوم بإرضائهم ببعض المال من أجل الإخلاء.

سيدخل أولًا رائد و"عباس" من أجل تفحُص المكان، سيمثلونَ أنهم يريدون الحصول على معاملاتٍ رسمية، إخراج قيد ووثيقة زواج، بعد تفحّص المكان سيخرجان وينضمان إلينا في الباص لإخفاء وجههما بعد ذلك سندخل جميعًا ملثّمين، سنهاجم الصندوق ونهدّدهم بقوة السلاح، وسيكون معنا عنصرٌ رابع، إنه بلال.

سينتظرنا بلال في الخارج، بعد أن نضع بصمتنا، سنترك عبارة " أنتم موظفون لدينا، كونوا محترمين ".

بعدها ستكون الخطة قد انتهت.

- ماذا عن المال؟ هل سنحتفظ به يا علي، يسألُ جواد.

- هذا المال هو مال الشعب والمعاملات لكن من سيتحمل خسارة الأموال هي الدولة نفسها.

- ستزيد إذن الضرائب لتعويض خسارتها، يقول كنان.

- ليس لدينا خيار آخر، ستكونُ رسالتّنا واضحة، ضدّ الظلم، ضدّ الفساد واللاعدالة.

- ماذا إذا جرت الأمور بمنحى آخر؟

يصرخ جواد: عندي أنا الخطة " ب " لكنني لن أفصحَ بها لحينِ حاجتِها.

- نحن نثق بك جواد، ونأمل أننا لن نحتاجها.

يوم التنفيذ – كنان

جاء يوم السبت، وقد كانَ نهار الجمعة أطول وقتٍ في حياتي، صراحة لا أريد أن أقضيَ بقية عمري في السجن لكن الأمر يستحِق، أعرفُ في داخلي أن ما نفعله خطأ كبير لكن الأمر أشبه بذلك الذي يبيع المخدرات وينشأ دورًا للأيتام، حتى الخير يحتاجُ إلى رأس المال ولا أظنّ أن من يمتلكُ مالًا للسفر إلى السعودية هو أكثر إيمانًا لأنه حجّ بيت اللّه الحرام أمام العبد الفقير الذي لا حيلة لديه، حسنًا ستكون هذه التجارة لمرةٍ واحدة فقط، سطو بأسلحةٍ مزيفة لنوصِل صوتنا، كم الحرام سهل، حين ندرك هذه الفكرة نعرفُ حجم إيماننا، يستغرق الناس الكثير من الجهاد للبقاء في إيمانهم وكلمة واحدة فقط أو تصرّف واحد يجعلهم كفارًا، لم يعطي اللّه باب التوبة إلا للعودة وأنا أخطط للعودةِ القريبة.

جاء يوم التنفيذ، بأعصابٍ مشدودةٍ ومتوترة كنا جاهزين، أربعةُ أشخاص لا شيء ليخسروه سوى صيتهِم الحسن، ذلك الذي جعلهم ضحايا في وطنِ الوساطة والوَجاهة.

دقَّت الساعة الرابعة، مركزُ الخدمات مكتظ بالناس وهذا ما نريده، استقلّينا سيارة دونَ لوحات وانطلقنا، في الطريق أنظر أمامي، لم أكن متأكدًا إن كان الشخص الذي يجلس أمامي بأعصابه المشدودة جواد أو علي، لقد لبسنا لباسًا موحدًا باللون الأسود ووضعنا الجراب الواسع في رأسِنا، بصمتٍ تامٍ انطلقنا وكأنه هدوء ما قبل العاصفة.

بصوتٍ غير مفهوم سمعتُ أحدهم يناديني:

- كنان ستكون المرة الأخيرة.

نظرت دون أن أعرفَ مصدر الصوت، أومأت برأسي الذي كانَ يهتز بفعل المطباتِ الأرضية، نظرت من النافذة وأنا أرى الناس حولي مشغولة بمصدرٍ

عيشها، لم يكن باستطاعة أحدٍ رؤيتنا بفعل الزجاج الذي يسمح بالرؤية من ناحيةٍ واحدة فقط، انطفأ محرّك السيارة وبدأت أسمع صراخ الناس في الخارج، التذمّر، الغضب، الانتظار... لطالما كان الموظفون في الداخل يتصرَّفون وكأن الدولة ملكٌ لهم، نزلنا بسرعةٍ فائقة من السيارة، اجتزنا الباب الكبير وهو مدخل المؤسسة، ثم أغلقناه وراءَنا والآن أصبحنا نحن والموظفون والمواطنون في مكانٍ واحدٍ مغلق منعزِل عن المنطقة، ضحيَّتان ومجرمٌ واحدٌ ولأول مرة شعرت بأني لست مجرمًا بل ضحية أتشارك مع عجوز وشاب وأطفال وطلاب غرفة واحدة.

- انتبهوا جميعًا إنها عمليةُ سطو مسلَّحة.

بدأ الصراخ في المكان والفوضى انتشرت بين جمعٍ من المواطنين، في العادة تكون هناك طلقة الترهيب لكن أسلحتنا مزوَّرة وسلاحُنا الوحيد هو الكلام.

- انبطحوا جميعًا! فجأة سمعت صراخ رائد وكانت فكرة جيدة بالنسبة لرجلٍ بنبرةِ صوتٍ مزعجة.

جلس الجميع فجأة أرضًا، بدأت أتنقل بين الأجسام المُنبطحة أحاول تفقّد أي حركةٍ مشبوهة، أي هاتفٍ مضيء.

- إن حاول أحدكم استعمال هاتفه سيكون يوما أسودًا له، يضيفُ عباس.

عاد الوضع من جديد إلى الهدوء ثم أخذ "علي" بالكلام، تريد معرفة من نحن؟ أليس كذلك! سأقول لكم:

نحن ذات البشر الذين نعيشُ مع هؤلاء في نفس الكوكب، يشير علي إلى موظفي المؤسسة ثم يكمل...

- لكن هؤلاء يظنون أن لديهن الحق في سلبِ وقتكم وجعلكم تنتظرونَ طوال النهار فقط لأنكم لم تدفعوا رشوةً لهم.

يتقدَّم على بضعة خطوات نحو رجلٍ عجوز ويقول:

- ماذا لديك من الأوراق يا سيد؟

يجيبُ العجوز وقد بدا واضحا عليهِ الارتباك.

- إنه إخراج قيد عائلي طلبته جامعة ابنتي من أجل تسجيلها بالجامعة.

تقدم جواد إلى العجوز وأخذ منه الورقة ثم اقتربَ نحو موظف المعاملات وهو يوجهُ سلاحهُ المزيّف نحو رأسه:

- كم تحتاج هذه المعاملة من الوقت؟

يجيب الموظف بصوتٍ مرتجف، خمس دقائق ثم يضع رأسهُ أرضًا.

ثم يأخذ عباس الحديث: وأنت يا سيدة ماذا جئتي تفعلينَ هنا؟

- أريد إفادة للسكن لكنه طلب مني الرجوع بعد أسبوع!

توجه رائد نحو موظفٍ آخر وقال له:

- والآن كم تظنّ يحتاج الأمرُ من الوقت؟

- سيدي أرجوك أبعِد السلاح ستكون الوثيقة جاهزة في دقيقتين.

- وهل تظن أن سلاحي أقوى من ضميرِك أيها المغفل!

يبدأ الموظف بالبكاء خوفًا وهو يحاول البحثَ في كومةٍ من الأوراق.

يضع "علي" يده على رائد محاولًا أن يطلب منه الابتعاد عنه ويلبّي الأخير ما يطلبه.

- هل أنتم نفسُ الأشخاص الذين سطو على المخبز؟

فجأةً تتوجّه الأنظار نحو سؤال شابٍ عشريني.

- اجلس ولا تحاول الإكثار من الأسئلة، صرخت في وجهه.

– نعم، نحن هم، يجيبُ جواد.

بدا الشاب حاذقًا للغاية، كان يدعى يوسف ولم تكن ملامحهُ خائفة كباقي الأشخاص، عرفت اسمه وصوته بسرعة، كان زميلي أيام الدراسة وقد كان شابًا متفوقًا، لحسن حظي أني كنت مجهولًا بالنسبةِ له لذلك حاولت عدم إصدار أي صوتٍ وفي حال اضطررت كنت أحاول تغيير نبرتي.

بدأ جواد يلصق اللافتة على الحائط وقد بَدت مَهمة صعبة بالنسبة ليدينِ ترتجفان.

- إذًا حقًا إنه أنتم!

لم يولي أحد الاهتمام لكلام ذلك الشاب الذي رأى بالصمتِ رضا لكلامهِ وأكمل...

- اسمي يوسف، وأنا صحافي ويمكنني مساعدتكم.

انتهى جواد من تعليق اللافتة، لقد أعطتنا نوعًا ما شعورا بالأمان.

- أعرف أنكم لستم أشرارًا لإيذاء الناس وأي مبتدأ سيعرف أن أسلحتكم مزيّفة!

كانت جملته كفيلة لإحباط خطّتنا ولكن فجأةً انتبهت أنه قد همس الجملة في أذني، بدأ جسدي يتعرَّق وتساءلتُ في نفسي إن كان قد عرفني وما الذي يدفعه ألا يفضحنا:

- إذًا أنا الآن معكم، أيها الموظفون تعالوا جميعًا إلى ناحية الحائط، وفعلًا تجاوبَ الموظفون جميعًا مع الرجل وقد أدركنا أن هذه الخطوة كانت أساسية من أجل التركيز لكننا لم نفعلها، يحاول "رائد" مهاجمة الرجل لكنّي أمسكه من يدهِ وأطلب منه الهدوء.

يستمر الشاب في إرسال نظراتهِ المتوترة والحادّة في آنٍ معًا، يتنقلُ بيننا دون أن يمنعه أحد.

- لطالما أحببتُ ما تفعلوه، أعني سطو على المخبز فكرة أكثر من رائعة، عليكم الآن الوثوق بي.

- ولما نثق بك؟! من أنت أصلًا؟! يسأل عباس وهو يوجّه سلاحهُ من جديد.

- قلتُ لكم، أنا صحفي وأنا هنا لمساعدكم.

- أهلًا بك يوسف بيننا، فجأة يقول جواد.

- ماذا هل تعرفه؟ يسأل علي؟

- كلا، لكن حدسي في مَنح الثقة للآخرين لا يخطئ.

- ثم ماذا؟ يسأل رائد بغضب، وهل سنتكلُ على حدسك؟

- نعم ستفعلون هذا، لأننا نحتاج صحفي صدقوني، يمكننا الاستفادة منه لإرسال رسالتنا، سنخبر الجميع بهدفنا من العملية، سنقول للعالم أننا لسنا لصوص، حان وقت إنهاء كل هذا يا علي.

أحضر يوسف حقيبته بعد أن سمحنا له بذلك، كان يمتلك كاميرا متطوّرة لم نعرف لما كانت متواجدةً معه.

- من سيأخذ الكلام؟ يسأل متوجهًا لنا جميعًا.

لم يكن هناك إجابة، فقط ترددٌ قاتل، هَممت للتكلُّم وإذ بعليٍّ يقاطعني:

- أنا سأتكلم.

توجَّهت إلى رائد، جواد وعباس ووقفنا ناحية الموظفين بأسلحتنا المزيّفة وبدأ التسجيل...

- لا يهمّ مَن أكون أنا مجرد شابٍ لبنانيٍّ من غرب بعلبك، تلك المنطقة المنكوبة البائسة، يظنُّ البعض أن بإمكانه فقط لمجرد أن أبيه أوصله لوظيفةٍ في الدولة أن يستعبدَ الناس، يكمل علي وهو يسير نحو الموظفين، ها هو ذا خائف ناحية الزاوية الآن وقد ذهب كل جبروته. ثم يعطي علي الكلام لعباس.

في هذه الأثناء لاحظت تعاطف الناس معنا وقد بدوا أكثر راحة كما نحنُ أيضًا، وقد بدأت وضعياتهم تنتقلُ من الانبطاح نحو الجلوس.

- أنا شابٌ لبنانيٌ أيضًا، لا يهمُّ ما هو اسمي لكني أريد فقط أن أكون من الأشخاص الذين لا يموتون دونَ هدف، على الأقل يا أبي سأكون قد ساعدتكَ في إنجاز معاملتكَ في وقتٍ وَجيز.

وأنا صديقه، يأخذُ رائد الحديث، أنا من سرقتُ المخبز الذي احتكرَ خبزكم بمساعدةِ أصدقائي لكني لست سارقًا، جلّ ما أريده وطنًا يحتويني ويَحوي أحلامي.

- هل تظنُّون أننا أشخاص سيئون؟ يقول كنان، كل ما أردناه حياة عادلة، فإما أن نكون جميعًا متساوين وإما سنموت ونحن نطالب بذلك.

- أنا ابن هذه المنطقة، يقول جواد، كما أصدقائي نمتلك جميعًا شهادات جامعية، لكننا دون عملٍ فقط لأننا لم نكن تابعين لأحزابِ السلطة كما تبعوهم هؤلاء، يُشير جواد إلى الموظفين.

في هذه الأثناء سمعنا صافرات الإنذار في الخارج وأصوات السيارات وزمامیرها. ركض "علي" نحو فتحة الشباك وأسقط نظره ثم قال: الشرطة هنا!

حالةٌ من الهَرج والمَرج، الجميع لا يعرفُ ما العمل، أصبحت ملامحنا جميعًا خائفة وشكّل الناس هالةً دائرية تفصلنا عن الباب الخارجي. منظرٌ أشعرني بالقشعريرة التي امتزجت مع مشاعرِ الخوف.

التفتُ إلى جواد ورأيته يُزيل قناعه الشفاف وقد أصبح وجهه واضحًا للجميع، يصرخ علي عليه هل جننتُ؟ ماذا تفعل؟!

- اللعبة انتهت يا أصدقاء، اسمي جواد وقد شاركتُ وأصدقائي في عملية المخبز يصرخ بأعلى صوته ثم يكمل...

- هيا علي، كنان، رائد وعباس أزيلوا أقنعتكم فهي ليست لنا.

في هذه الأثناء تقتحم الشرطة المكان لكن جمعًا من الناس يحاولون منعهم من التقدم، قمنا بإزالة أقنعتنا جميعًا وأمسكنا الأيادي وجعلناهم متشابكين مع من كان في المكان، تصل الشرطة للمنتصف، ترى مجموعة من الأسلحة البلاستيكية وتحاول التلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن خاطفين أو وجوهًا شريرة ولكن دونَ جدوى، أصابتني القشعريرة حين رأيت الموظفين يشاركوننا التشابُك.

- هل كل شيءٍ على ما يرام؟ يصرخ رجل الأمن.

- نعم سيدي نقوم فقط بتصوير فيلمٍ وقد انتهينا، يجيبُ يوسف.

- حسنًا في المرة المُقبلة حاولوا إبلاغ جهاتٍ رسميةٍ وإلا ستتعرضونَ للمساءلةِ القانونية.

لم يَقم أحدٌ بالوشيِ بنا، جميعُ الموظفين بقوا في صمتٍ تام، لا أصدّق أننا نجونا ولكني أعرفُ أننا عدنا كما نحنُ بوجوهنا الأصلية، وهذا مريح للغاية، ما هي إلا نصفُ ساعةٍ حتى رجعت الأمور إلى حالها وخرجنا من المكان كأننا كنا في نهاية فيلم، خرجنا والناس كأننا أبطال ولسنا عصابة، خرجنا بضمائرَ مرتاحة وآمالٍ كبيرةٍ بوطنٍ نطمح إليه ذات يوم.

في طريق العودة، تساؤلات كبيرة في نفسي، كيف علم الأمن بوجودنا؟ لقد راقبنا الجميع بدقةٍ كبيرة، من هو يوسف وما الهدف من مساعدتهِ لنا؟ كيف حدثَ كل هذا، الأمر أشبه بالمعجزة ولا أصدق أننا لسنا الآن وراء القضبان.

انتهى كل شيء، نظرتُ إلى أخي "علي"، لقد تغيَّر كثيرًا في الآونة الأخيرة، لطالما رأيته كثير الشرود والتفكير، أردت أن ينتهيَ كل شيء وقد انتهى، أنا سعيدٌ أني قد تحديتُ نفسي وتحديت دولتي الفاسدة، لقد أعطتني خطة آر جي قناعةً كبيرةً في نفسي، قناعة تجعلني الآن أضحك في سرّي فما كان في الأمس مستحيلًا أصبح اليوم واقع.

عدت إلى سابق عهدي، اتفقنا أن نعيدَ مال المخبز ونتبرَّعَ به إلى العائلات الفقيرة في المنطقة وكان ذلك على دفعاتٍ متتالية ستبقى حتى بعد إرجاع المال، خطيبتي ريما بدأت عملها في التعليم جاهدنا لبناءِ منزلنا، حددنا تاريخ زواجنا الذي بُني على المال الحلال فقط، ولا شيء أقوى من الدعائم التي يتمُ بناؤها حلالًا، خدمتي أصبحت مَهمة روتينيَّة أقوم بها تمهيدًا لإنشاء عملي الخاص في افتتاح نادٍ رياضيٍ صغير في المنطقة، فالدولة الفاسدة لا تستحقّ أن تخدم، أنا أخدم وطني فقط ولا أريد أكثر من هذا.

لقد كان الليل أكثر اطمئنانًا في هذا اليوم، وكان نومي عميقًا وسعيدًا للغاية والآن لي الفخر أن أقول أني كنت يومًا فردًا من منفّذي خطة آر جي ضدَّ الدولة الفاسدة، وها هي حياتي تعود لسابقِ عهدها.

البقاع – غرب بعلبك

ما وراء الكواليس

جواد – الخطة ب

الخطة ب دائمًا موجودة عندي، وقد كانت مَهمة صعبة، استطعت إنهاء كل شيء، لقد اتّفقت مع يوسف قبل نهار من العملية، كما اتفقت مع مهندس الصوت ومجموعة من رجال الأمن الوهميين، وكان ذلك دون أن يعرفَ أحد هذا، أردتُ أن نعودَ لهدفنا الأساسي وأن يعرفَ العالم أجمع أننا لسنا لصوص، ما يزال المشهد أمامي، كيفَ أصبح الناس درعًا لنا فقط لأنهم فهموا رسالتنا، لم يكن هذا أبدًا مشهدًا تمثيليًا بل كانت حقيقةً كبيرة أن الشعبَ يخطئ، لكن الفقير لا يشعر به إلا الفقير. لم يكن تشابك الأيدي تمثيلًا، كانت رغبةً عارمةً في البقاء ورغبة قوية في إصلاح الذات لدى الموظفين، لم يكن الخوف تمثيلًا ولا مشاعر الحزن والأسى حين تكلَّمنا عن وجعنا، بل كانت أكثر الأمور الحقيقية تلك التي خرجت من أفواهنا، لم أستطع في ذلك النهار الرد على طلبات الصداقة جميعها، لكني أظن أن صاحب المخبز سيعرف حقيقة من سرق أمواله لكنّه سيصمت لأنه يعرفُ أنه المذنب، خطة آر جي قد نجحت لتزرع في نفوسنا القوة والأمل، لكنها لن تجعلنا لصوصًا أبدًا.

بقي هذا السرّ محفورًا في ذاكرتي، ربما كانت خطتنا الأخيرة في مركز الخدمات ستجعل كل فردٍ منا يستمرّ في تلك السلسلة من التحسّن التدريجي لوضعه، لكن إيقاف تلك الخطة سيضع حدًا لكل شيء، اتفقنا بعد هذا اليوم على إعادةِ الأموال تقسيطًا وتقديمها على شكلِ مساعداتٍ شهرية للعائلات الأكثر فقرًا، وهذا أكَّد لي أن ما فعلناه نجح ويبقى في الأخير الجندي المجهول الذي يُعيد كل منا إلى طريقة، إنه الضمير.

لقد استطعت الحصول على وظيفةٍ أفضل وما أعنيه بالأفضل هو الراحة النفسية وليس المادية، هذا ما كنت أحاول قوله للفريق من البداية، ما نفع المال الكثير وعذاب الضمير موجود؟

عدنا إلى اجتماعاتنا الأولية، أدركت أن لعبة الورق لم تكن تافهة كما كنت أتصوّرها، فهي تحمل أسمى معاني الصداقة، التجمع والنقاشات وتفريغ الهموم... لقد كانت عيادتنا النفسية التي نقوم فيها بالتنفيس عن الضغوطات بأجواءٍ من الثقة والمحبَّة المتبادلة، أما صديق عمري "علي " فهو ملاذُ الثقة لي ولم أرد أن يصيبه أي مكروهٍ فوضعت أمامه أقلّ السوء لنخرج جميعًا من هذه الدوَّامة.

رائد سافر إلى أستراليا بعد مجهودٍ كبير، التحق بعملهِ الجديد كمديرِ صالة في أحد الفنادق، أما عباس فقد أصبح يعمل في شركةِ مطبوعات إلى أن يصلَ إلى آخر دولار يحتاجه لإكمالِ دراسة الطب.

وفي النهاية " علي " الذي أمسك بزمامِ الأمور من خلال تكبير مشروعه الزراعي ليصبح مشروعه الصغير متوسطًا وينال قدره الكافي من المال كل نهايةِ أسبوع.

البقاع – غرب بعلبك

الملاذ

جواد

قشعريرة

كانَ ذلك عند انتهاء الدوام، اقتربت من السيارة وأنا أجهز حقائب العمل تمهيدًا للعودة، لَمحت من بعيدٍ بعض رجالِ الأمن الذين يتوجَّهون نحوي، يقودهم رجلٌ ثلاثيني ويشير بأصبعه نحوي، مع اقترابهم توضَّحت ملامحهُ بشكلٍ أفضل، لكنه هذه المرة كان يمشي بطلاقة كالجندي الواثق، سحبتُ هاتفي وطلبتُ رقم "علي"، كان في قلبي اطمئنانٌ لا يوصف دون أي ذرةِ خوف، كان فاروق لكنه بحلةٍ جديدة، لم أره بهذا الجبروت أبدًا في جلساتهِ، لقد انتظرت هذا اليوم منذ فترةٍ طويلة، ألقيت سلامًا بالإيماء وأنا أوجه نظراتي نحوه، لقد كان أمامي ضابط في الجيش هذه المرة وليس مريضًا في جلسة مغلقة.

- ألو ألو جواد... هل تسمعني؟

لقد كانَ صوت "علي" كما كان دائمًا اطمئنانٌ وأمان، عرفتُ أن بعد بضعة دقائق ستوضعُ الأصفاد في يدي، لكني لم أخف، صوت "علي" في أذني وقدرة فاروق علي المشي جعلتني وأخيرًا شخصًا طليقًا.

- سلام سيد جواد، أردت المرور فقط لأشكرك وأقول لك أني تماثلتُ للشفاء التام.

تنفستُ الصعداء وأنا غير مُدركٍ بأي حدثٍ أفكّر، أغلقت الهاتف مع علي الذي كان يحاول إعادةَ الاتصال بي، ثم قاطعني فاروق من جديد:

- بالمناسبة، أعرف أين رأيتكَ سابقًا ثم يشير لي بغمزةٍ من عينيهِ ويرحل.

انتهت خطة آر جي وكانت درسًا لي في الصداقة والإرادة والقوة والثورة، رددتُ على رنين هاتفي من جديد...

- جواد هل تسمعني الآن.

- أسمعك علي، أردت فقط أن أشكرك لأنك الأفضل، أراكَ في المساء.

النهاية

شكر خاص

لهؤلاء الذين نتشاركُ معهم أحزاننا ويستقبلوها كأنها سعادة، إلى صديقي السرمدي " علي " الذي كان وسيبقى الملاذَ والقوة.
إلى من رافقني طيفها في لبنان وكان وقودًا لي نحو المثابرة والنجاح خطيبتي وعظيمتي

منيفا ضاهر

للتقييم والمراجعات
jsefeldin@gmail. com

الفهرس

الإهداء.....5

مقدمة.....6

البقاع – غرب بعلبك قصة علي.....7

بداية الأزمة بعلبك – لبنان عربون صداقة 16

ستة دولارات - رائد 17

أرض الري جي السعديات – 26 شباط 24

رائد – حلٌ جذري.....25

جواد – مالُ الموت 28

آتونٌ لا مخرج منه بعلبك – نيسان 2021 34

بداية مستحيلة – بعلبك علي 35

الذهاب إلى الهاوية رائد.....39

المرحلة الأولى الاستطلاع - السعديات لبنان.....43

تردّد قاتل.....44

منحدر الأمل – علي 46

أزمة في أزمة – جواد.....49

تقييم مريح – عباس 51

عنصرٌ جديد – كنان في الري جي 56

المرحلة الثانية – السعديات منزلُ الفئران.....57

صدمة غير متوقعة – عباس 58

أرض الري جي الطريق للغنيمة تموز 2022.....61

علي – مهمةٌ شاقة 62

اليوم الثاني تموز 2022 وقتُ الوصول.....66

عباس- شغف الوصول 67

يوم التنفيذ السعديات لبنان.....70

علي – لقمة سائغة 71

رائد – قرار صائب.....73

عباس – صرخة نجاة 75

رائد – كمشةُ غضب.....77

إحباط مؤقت – بعلبك جواد - لبنان.....80

بعلبك – لبنان عقدة ذنب المرحلة الخامسة.....84

كنان – الوجهُ الآخر بعلبك – لبنان 85

علي – شكوك وبرهان 87

جواد – في وجهِ إبليس 93

البقاع – بعلبك البيئة الحاضنة 95

ظلم مظلوم عباس 96

بيضة وجمل بعلبك – 12 تموز 2022 100

خطة طوارئ جواد 101

البقاع – بعلبك دائرة الخدمات 105

علي – ترددٌ قاتل 106

يوم التنفيذ – كنان 108

البقاع – غرب بعلبك ما وراء الكواليس 116

جواد – الخطة ب 117

البقاع – غرب بعلبك الملاذ 120

جواد قشعريرة 121

شكر خاص 123

الفهرس 124